

مقبولية النص ونصية المقبول

دراسة نقدية في ضوء نظرية التلقي للإحمادي في الموضوعات

إعداد

أ.م.د. محمد الله عبد الحليم محمد محمد الله

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

كلية الآداب- جامعة جنوب الوادي بقنا

المخلص:

فتحت نظرية التلقي آفاقاً رحبة لدراسة استجابات القارئ، وتجاوبه مع النصوص، ومن بين النصوص الجديرة بالدراسة، والنقد تلك النصوص الموضوعية التي وُضعت لتحكي نصوصاً نبوية مرفوعة؛ فنُسجت على منوالها للترغيب تارة، وللترهيب تارة أخرى، تحركها دواعي القبلية، والتعصب حيناً، أو دواعي الجهل حيناً آخر، وقد أتاحت نظرية التلقي للقارئ استقلالاً معرفياً، وسلطة إجرائية لاستقبال تلك النصوص.

وتقدم الدراسة تصوراً يناسب دراسة النص الموضوع بوصفه نصاً فنياً يحمل صفات الفنية التي هي دأب المنتج، وصفات جمالية هي هدف المتلقي، ووصفات بنيوية وأسلوبية هي عماد النص؛ لتتلاقح عناصر العملية التواصلية في هذا الإنتاج، وقد جعلت الدراسة من إجراءات نظرية التلقي، ومبادئها منهجاً للتحليل، ولم تغفل الدراسة معيار المقبولية في الدرس النصي لتتلاقى هذه النظريات المعرفية؛ حتى تكشف عن طرق الوضع وأساليبه، وآليات استقبال المتلقي لها.

وحددت الدراسة عدة طبقات مستقبلية للنصوص، هي طبقات الوعاظ، والمتقين، وجمهور العوام الذين يمثلون البعد السوسيولوجي لانتشار تلك النصوص، بالإضافة إلى المتلقين النقدة، الذين تمثلهم مؤلفات الموضوعات، والتخاريج، وكشفت الدراسة عن الدور المحوري لأداة التناص بوصفه وسيلة للسيطرة والهيمنة على المتلقي، وقدمت مقارنة لاستجابات المتلقي؛ وفق نظرية التلقي لمجموعة من المفاهيم المساعدة لقراءة النص الموضوع؛ فعرضت لوظائف مصطلحات القارئ الضمني، والمسافة الجمالية، والسجل النصي، واندماج الآفاق، وأفق التوقع، وقدمت الدراسة صوراً للتلقي، وآليات الاستجابة كتلقي أحاديث فضائل السور، وأحاديث وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه وغيرها، وبينت ملامح بنائية، وظواهر أسلوبية لتلك الموضوعات كالإيجاز، والعناية بعتبة الافتتاح، وهي شرك الواضع التي يوقع بها متلقيه.

وخلصت الدراسة إلى نتائج منها: تنوع أساليب الوضع حسب المقامات، والأحوال الداعية لها، وتفاوت درجات المستقبلين، وظهر من الدراسة أن النصوص التي جاءت صحيحة المعنى اعتمدت في مضمونها على نصوص مرفوعة، وهو ما يمثل جزءاً من بلاغة التلاعب بالمتلقي.

الكلمات المفتاحية: نظرية التلقي، المقبولية، النصية، الأحاديث الموضوعية.

Summary

The Reception Theory has opened up broad horizons to study the reader's responses and interactions with texts. Among the texts worthy of study and critique are those fabricated texts that were created to imitate authentic prophetic texts, so that they were crafted in their style at times for encouragement and at other times for deterrence, motivated by tribalism and fanaticism motives at times or ignorantness motives at other times. The Reception Theory has provided the reader with cognitive independence and procedural authority to receive these texts.

The study presents a vision that suits the study of the fabricated text as an artistic text embodying artistry characteristic that are the producer's diligence, aesthetic features that are the recipient's goal, and structural and stylistic attributes that are the frame of the text, so that the elements of the communicative process are cross-pollinated in this production. The study adopts the procedures and principles of Reception Theory as a methodological approach for analysis, while considering the criterion of acceptability within textual studies, so that these cognitive theories converge, revealing the methods and styles of the fabrication and the ways in which these texts are received. The study identifies several layers of text recipients: preachers, intellectuals, and the general public, representing the sociological dimension of these texts' dissemination, in addition to the critical recipients represented by the Fabricated Hadiths and Hadith Verification works. The study focuses on the tool of intertextuality as a means of controlling and dominating the reader, and offers an analysis of reader's responses based on the Reception Theory for a group of concepts that help to read the fabricated text and its impact; such as the implied reader, aesthetic distance, textual register, integration of horizons, and horizon of expectation. The study presented forms of reception and response mechanisms; Such as the reception of hadiths about the virtues of the Surahs, hadiths of Prophet's self-descriptions, and others. The study demonstrated structural features and stylistic phenomena of the topics; such as brevity, and special attention to the opening threshold, which is serving as the trap of the fabricator that attracts his recipients.

The study concluded with several findings including the diversity of fabrication methods according to the contexts, circumstances that necessitated them, and the diversity of the levels of the recipients. The study demonstrated that many of the fabricated texts carry valid meanings; as they rely on authentic texts, which reflects an aspect of rhetorical manipulation of the recipient.

Keywords: Reception Theory, Acceptability, Textuality, Fabricated Hadiths.

مقدمة:

ظاهرة الأحاديث الموضوعية تحتاج إلى الدرس، والنظر من المهتمين بدراسة النقد، والبلاغة، والأسلوب، وبخاصة أنها تكشف عن حيل الوداعين في محاكاة أسلوب النبي- صلى الله عليه وسلم -، ونحت أسلوب على أسلوبه؛ وذلك من خلال بلاغة التلاعب بالمتن لإقناع المتلقي؛ كأن يأتي الوداع بمعنى مقبول لكن النبي- صلى الله عليه وسلم - لم يقله، أو يأتي بحديث صحيح فيأخذ مفتتحه، ثم يضع بعد المفتتح ما شاء له اعتماداً على شهرة المفتتح، ومقبوليته لدى السامع... وغير ذلك.

وقد أسهمت نظرية التلقي في تحرير القراءة للنص؛ وفق ثقافة القارئ واطلاعه، وحددت صوراً عدة يمكن من خلالها التعرف على حضور المتلقي، ودواعي استجابته للنص؛ فقد يكشف القارئ عن عدم الرضا عن نص من النصوص؛ فيبين حدود الانحرافات فيه؛ فينفي نسبة النص إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه لم يقله أو لمخالفته نصاً صحيحاً، ومن هنا يمكن تتبع مقاصد عملية الوداع، ودواعيها الخفية.

ولما أرادت الدراسة تتبع استقبال النصوص الموضوعية اعتمدت في أكثر الاستشهادات على كتاب: (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية) لمحمد بن على الشوكاني للتمثيل والدراسة؛ وذلك لبيان علامات المقبولية، وآليات التلقي، والكشف عن الجماليات الخادعة لهذه النصوص.

وللوضع أسباب متعددة؛ منها: أسباب دينية، وسياسية، واجتماعية، وعقدية، واقتصادية، وعصبية، وعنصرية، أو قبلية وشعوبية، ومنها: منافع شخصية، ومصالح ذاتية، والوضع قد يقع في حديث كامل، أو يقع في جانب من حديث مرفوع صحيح، وقد يقع وهماً، وجهلاً، أو تعمدًا.

وتهتم الدراسة بالبحث حول عملية اشتراك المرسل مع المتلقي في ذبوع النص، وانتشاره من خلال صياغة أسلوبية توهم بصحة النص، وهذه الآليات هي التي أسهمت في هذا الانتشار؛ فتقدم الدراسة تفسيراً لها، ولا تتعرض للصحة، أو الوضع؛ بل إن شروط قبول الأحاديث النبوية له مظانه في كتب الصحاح من الحديث.

وتقدم الدراسة تصوراً يناسب دراسة النص الموضوع؛ بوصفه نصاً فنياً يحمل صفات الفنية التي هي دأب المنتج، وصفات جمالية هي هدف المتلقي، وصفات بنيوية، وأسلوبية هي عماد النص؛ لتتلاقح عناصر العملية التواصلية في هذا الإنتاج، وقد جعلت الدراسة من إجراءات نظرية التلقي ومبادئها منهجاً للتحليل، ولم تغفل الدراسة معيار المقبولية في الدرس النصي؛ لتتلاقى هذه النظريات المعرفية في الكشف عن طرق الوضع، وأساليبه، وآليات استقبال المتلقي لها.

والدراسة كشفت عن عدة طبقات مستقبلية للنصوص، هي: طبقات الوعاظ، والمتقنين، والعامّة الذين يمثلون البعد السوسولوجي لانتشار تلك النصوص، هذا بالإضافة إلى المتقنين النقدة الذين تمثلهم مؤلفات الموضوعات، والتخاريج، وركزت الدراسة على أداة التناص كوسيلة للسيطرة، والهيمنة على المتلقي، وقدمت مقارنة لاستجابات المتلقي؛ وفق نظرية التلقي لمجموعة من المفاهيم المساعدة لقراءة النص الموضوع، وتأثيره؛ وذلك من خلال القارئ الضمني، والمسافة الجمالية، والسجل النصي، واندماج الآفاق، وأفق التوقع.

وقدمت الدراسة صوراً للتلقى، وآليات الاستجابة كتلقي أحاديث فضائل السور، وأحاديث وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه وغيرها، وبينت الدراسة ملامح بنائية، وظواهر أسلوبية للموضوعات كالإيجاز، والعناية بعتبة الافتتاح، وهي شرك الواضع التي يوقع بها متلقيه.

ومن الدراسات التي عنيت بالحديث الموضوع دراسة بعنوان: (دراسة أسلوبية للأحاديث الموضوعية) د. محمد رفعت زنجير، منشورة في المجلة العلمية لكلية الآداب جامعة أسيوط، عدد ٤٥، يناير ٢٠١٣م، واختار الباحث خمساً وعشرين

حديثاً موضوعاً من سلسلة الأحاديث الضعيفة، والموضوعة للألباني، وقام بدراسة متنها دراسة أسلوبية، وهذه الدراسة بعيدة عن مجال دراستي؛ إذ ركزت دراسته على النص، واشتغلت دراستي بنظرية التلقي لنماذج من أحاديث كتاب (الفوائد المجموعة) للشوكاني.

وتألفت الدراسة من: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، واختصت التمهيد بتعريف الحديث الموضوع، وآليات تلقيه، ودواعي مقبوليته، وعرجت على مصطلح التلقي نشأة، ومذهباً نقدياً، وفي المبحث الأول- سلطت الضوء على طبقات المتلقين بين المقبولية والتناص، والبعد الاجتماعي؛ وذلك من خلال دراسة أمرين: الأول - سوسيولوجيا التلقي، وطبقات المستقبلين، والثاني- التناص، وأثره في مقبولية النص بين طبقات المتلقين، وفي المبحث الثاني- درست مقارنة تجاوب المتلقي مع الحديث الموضوع؛ وفق النظرية، وركزت على مفاهيم النظرية، ومصطلحاتها التي كانت مُعيناً لتحليل النصوص الموضوعة، ومن هذه المفاهيم: القارئ الضمني، والمسافة الجمالية، والسجل النصي، واندماج الآفاق، وأفق التوقع، وفي المبحث الثالث- بينت صور تلقي الأحاديث الموضوعة، ومقدار الاستجابة، وكشفت عن التلقي لعدد من الصور المهيمنة على المتلقي كتلقي أحاديث فضائل السور، وتلقي حديث أدرج فيه جزء ليس منه، وتلقي أحاديث وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - لنفسه، وتلقي النص على سبيل الغلط، وتلقي النص المبني على نص صحيح، وتلقي النص بسلطة التخويف، وتلقي النص تعصباً، وفي المبحث الرابع- كشفت عن ملامح بنائية، وظواهر أسلوبية في النصوص الموضوعة، وفيها دراسة لظاهرتين: أولاً- ظاهرة إثارة الإيجاز في بناء النصوص الموضوعة، وثانياً- التنوع الأسلوبي لعتبة الافتتاح، وأثرها على المتلقي.

تمهيد:

نظراً لعدم تدوين السنة النبوية في حياة النبي- صلى الله عليه وسلم- فقد ظهر بعد وفاته ما يُسمى بالحديث الموضوع، ويغلب عليه اسم الحديث لنسبة الواضع له إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، ولكن الوصف يقيد عدم صحته؛ فيوصف بالموضوع، وهي أشهر صفاته، وهذا يجعله لا ينسب حقيقة إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-.

وشاع بين العلماء استعمال مصطلح الحديث الموضوع؛ وذلك على الرغم من الخلاف على تسميته بالحديث؛ فهو ليس حديثاً، ثم إن وراء هذا النزاع في إدراج الموضوع في أنواع الحديث؛ لكونه ليس بحديث، ولكن قد أُجيب بإرادة القدر المشترك، وهو ما يحدث به، أو بالنظر لما في زعم واضعه، وأحسن منهما أنه لأجل معرفة الطرق التي يتوصل بها لمعرفته؛ لِيُنْفَى عن المقبول ونحوه^(١)، ووصفه بالحديث أقرب إلى الصواب ليتمكن تصنيفه، وتمحيصه، ونقده.

وإذا كان العلماء في مصنفاتهم قد أدرجوه ضمن الأحاديث؛ فذلك "من أجل الوقوف على طرقة التي يتوصل بها لمعرفة كذبه؛ فينتفي عنه القبول، ويحكم برده"^(٢)، ومن طرقة مخالفة العقل، أو النقل، أو معرفة الرجال الوضّاعين؛ لذا انتبه العلماء بالجرح والتعديل إلى الرجال سنداً، وإلى متنه نقداً، وبحثاً؛ وذلك من خلال شروط متفق عليها لقبول متن الحديث.

(١) فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث: شمس الدين السخاوي، تحقيق/ علي حسين علي، مكتبة السنة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م، ٩٩/٢.

(٢) الوضع في الحديث الشريف: د. عمر فلاته، مكتبة الغزالي، دمشق، ط١، ١٩٨١م، ١١١/١، وانظر/ الحديث الموضوع، سيد عبد الماجد الغوري، الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور، ماليزيا، ٢٠١٧م، ص١٣.

أولاً - الحديث الموضوع: حدوده، وآليات تلقيه، ودواعي مقبوليته:

وضع علماء السنة خمسة شروط لقبول سند الخبر، ومتمته، هي: اتصال السند، وعدالة الراوي، وضبط الراوي، والسلامة من الشذوذ، والسلامة من العلة القاذحة الخفية^(١)، وهذه الشروط تخرج ما خالفها عن عباءة الحديث الصحيح؛ ليقع تحت طائلة النقد، والتمحيص، أو تنبذه بالكلية لهذه المخالفة؛ ولذا كان الحديث الموضوع ما خالف كل هذه الشروط مجتمعة، أو أكثرها، وعرف (السيوطي) الحديث الموضوع بأنه: "هو المختلق المصنوع، وشر الضعيف، وتخرم روايته مع العلم به في أي معنى كان إلا مبيّنًا، ويعرف الوضع بإقرار واضعه، أو معنى إقراره، أو قرينة في الراوي، أو المروي؛ فقد وضعت أحاديث يشهد بوضعها ركافة لفظها، ومعانيها"^(٢)؛ فقد جعل (السيوطي) الركافة في اللفظ، وسوء المعنى من علامات الوضع، وسبب من أسباب عدم القبول.

ويميل كثير من الوضّاعين إلى محاكاة الأسلوب النبوي عند الوضع؛ فيعتمد في تركيب البنية اللغوية في المكذوب على بنية حديث مرفوع توافرت فيها شروط الصحة اللغوية، وسلامة الروابط النحوية، وانسجام العلاقات الدلالية، وهو ما يبغى البحث توضيحه بالدليل اللغوي، وبما يقدمه النقد من أدوات، ومما يجعله غير مقبول لمخالفة العقل، أو الأصل؛ فـ "كل حديث يخالف العقل، أو يناقض الأصول؛ فاعلم أنه موضوع؛ فلا تتكلف اعتباره"^(٣)؛ فمخالفة العقل والدلالات القطعية، أو الأصل والقواعد الكلية يخرجها من دائرة المقبولية حتمًا.

(١) انظر/ التأصيل الشرعي لقواعد الحديث: د. عبد الله شعبان، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٩١: ٣٨٢.

(٢) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين السيوطي، تحقيق/ أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م، ١/ ٣٢٣.

(٣) الموضوعات لابن الجوزي، تحقيق/ محمد عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، السعودية، ط١، ١/ ١٠٦.

وقد تتبّع العلماء طرق رواية الموضوع؛ فمن ذلك ما رواه (السيوطي) من بحث أحد المدققين، ومتابعته سند حديث سمعه في فضائل القرآن؛ فكان ينتقل كل مرة ليلتقي بمن رواه؛ حتى انتهى إلى واضعه؛ فقال: "يا شيخ من حدثك بهذا الحديث؟ فقال لم يحدثني به أحد، ولكنّا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن؛ فوضعنا لهم هذا الحديث؛ ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن"^(١)؛ فالرغبة مع استحسان المتلقي هي سر اجتراء الوضّاعين، ومن دواعي الوضع جهلاً.

ولطرق معرفة الوضع علامات؛ منها: "ركاكة ألفاظ الحديث، وسماجتها؛ بحيث يَمُجُّها السمع، ويدفعها الطبع، ويسمُجُ معناها للفظن"^(٢)؛ فالركاكة، والضعف من دواعي عدم القبول؛ لأن ما عرف عن النبي- صلى الله عليه وسلم- من فصاحة، وبيان، ودقة في اللفظ والمعنى ينفي نسبة ما أحاطت به الركاكة، والضعف إليه.

وللموضوع استتقال في النفس يدفعها إلى الملل، والشك؛ إما لسهولة لفظه، أو لعدم تعليق الكلم بعضها ببعض، أو حتى في تحقير العظيم، وتعظيم الحقير من الأفعال، والأقوال، أو مخالفة العقل، والنقل.

ويدفع السامع الفطن هذا الوضع، وينبذه مع كل محاولات واضعه حبك النص، وسبكه، وتعمره اصطيات المتلقي؛ فعلى السامع ضرورة الانتباه، واختبار المعاني، والشك في كل نص حتى يتصل سنده، وتثبت صحته عن النبي- صلى الله عليه وسلم. وكما يقال: يؤتى الحذر من مأمّنه؛ فإن كثيراً مما يأتي الوضع من جانبهم من قوم زعموا ترغيب الناس في الخير، وحثهم على فعله، وهم أعظم الوضّاعين خطراً؛ إذ يقول السيوطي: "والواضعون أقسام أعظمهم ضرراً قوم ينسبون إلى الزهد، وضعوه

(١) كتاب الدلائل المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: جلال الدين السيوطي، تحقيق/ أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ٢٠٨/١.

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط١، ١٣٩٠ هـ، ص ٩٩.

حسبة في زعمهم؛ فقبلت موضوعاتهم ثقة بهم^(١)، ومن أسباب تلقي الناس للموضوع بالقبول هو اختلاط هذه الموضوعات بالأحاديث الصحيحة، وكذلك نسخ كتب العلماء المقبولين مع دس هذه الموضوعات داخل مصنفاتهم التي استجاب القارئ لها، واستأنس بصواب أحاديثها؛ ومن ثم شاع الموضوع مع شيوع الصحيح من الأحاديث؛ فاستوت الاستجابة، وحسن التلقي لهما.

وكانت دعوة النبي- صلى الله عليه وسلم - إلى الإعراض عن تلقي هذه الآثار الموضوعية، ونقدها؛ فيقول- صلى الله عليه وسلم - : "يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ، وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لَا يُضِلُّونَكُمْ، وَلَا يَقْتُونُوكُمْ"^(٢)؛ حيث يدعو الحديث متلقي هذه الآثار إلى إعمال العقل والمنطق، واللغة ومعايير القبول محذراً بأسلوب التحذير (إياكم) من أمرين: الإضلال، والفتنة، وقال ابن عباس: "إِنَّا كُنَّا مَرَّةً إِذَا سَمِعْنَا رَجُلًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم -، ابْتَدَرْتُهُ أَبْصَارُنَا، وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بِأَذَانِنَا؛ فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ، وَالذَّلُولَ، لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ"^(٣)، ويشير كلام ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى التصدير الذي يوقع السامع فريسة للقبول، وهو الاستفتاح بجملة (قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -).

وقد كانت دعوته- صلى الله عليه وسلم - تنبيهاً، وتحصيئاً عن قبول النص الذي يبدو ظاهره مغرياً للقبول، داعياً إلى البحث عن صحة هذه الأحاديث، والتنثبت من صواب نسبتها إليه، وعدم الانسياق وراء الصياغة، وما فيها من ترغيب، أو ترهيب؛ لأن الترهيب الكاذب المغالي فيه يصرف الناس عما في بعض الأمور من الحسن، والخير، والمصلحة.

(١) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين السيوطي، ١/ ٣٣٢.

(٢) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١/ ١٢، رقم ٧.

(٣) صحيح مسلم، ١/ ١٣.

وتبدو مراوغة جُلّ الوضّاعين للمتلقّي واعية مقصودة؛ فقد ركن الوضّاعون، أو كأنهم فعلوا إلى اختلاق بلاغة مكذوبة؛ إذ تلاعبوا بالمتن والقارئ على السواء؛ كأنهم ركنوا إلى قول (أبي هلال العسكري): "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع؛ فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن" (١)؛ فساروا خلف اقتناعهم بما يقولون ليقنعوا به غيرهم.

ولكل فريق من المتلقّين خطاب يراعي الواضع من خلاله حالته النفسية، ومقدار العلم والثقافة، وعلو المرتبة أو دنوها، ومن خلال فهم حال المتلقّي يسهل خداعه، وإقناعه بالكذب، وكأنهم ركنوا مرة أخرى إلى نصيحة (أبي هلال) في سبل الإقناع؛ حيث يقول: "فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم، وقوتهم في المنطق" (٢)؛ لأجل ذلك حرص الوضّاعون على ما يهم المتلقّي من الأخبار.

(١) كتاب الصناعتين- الكتابة، والشعر: أبو هلال العسكري، تحقيق/ محمد مفيد قميحة، دار الكتب

العلمية، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٤.

ثانياً- التلقي نشأة، ومذهباً، نقدياً:

استقبل الدرس النقدي العربي نظرية التلقي، وتقلبت تسمياتها عند المترجمين لها؛ فعرفت عند (عز الدين إسماعيل) بنظرية التلقي، وعند (حسين الواد) بجمالية التقبل، وعند (نبيلة إبراهيم) بنظرية التأثير، والاتصال... وغيرهم^(١).

وكان لـ(هانز روبرت ياكس، ١٩٢١/١٩٩٧م)، و(فولفجانج آيزر، ١٩٢٦/١٩٩٧م) دور مهم، ومتقارب في تطور نظرية التلقي، وتبلور أبعادها، ووضوح رؤيتها؛ لأن "التفسير الذي فهم على أنه نشاط القارئ في فهم النص هو بؤرة نظرية (ياوس)، والشيء نفسه يصح بالنسبة إلى (إيزر)"^(٢)؛ فقد استقرت أبعادها بعد أن كانت أفكار هذه النظرية منثورة في الدرس البلاغي للحضارات الإنسانية، ومنها: العربية التي أولت عناية للمتلقي، وجعلته من عناصر العملية التواصلية.

وتعد مدرسة (كونستانس) الألمانية التي ينتميان إليها هي "المرجع الأساسي في جماليات التلقي التي ستعيد للقارئ، أو لقطب القارئ اعتباره؛ بل أدخلته في العملية الإبداعية؛ لتوصل الثالث المعروف: المؤلف، النص، القارئ، ولم تتحدث عن المجتمع، وهو عنصر مستقل كما فعلت جماعة (برلين)؛ لأنها ترى شأن المنظرين الآخرين أن المجتمع يوجد في النص، وفي القارئ"^(٣)؛ فالقارئ كجوف الفرا يجمع ثقافة المجتمع، وعاداته، وهو مستودع خصائص مجتمعه، وقد افترقا؛ فقد "اهتم (ياوس) بالتلقي، على حين اهتم (آيزر) بالاستجابة، والتأثير"^(٤)، وافتراقهما سعة للدرس النقدي.

(١) انظر/ إشكالات نظرية التلقي- المصطلح، المفهوم، الإجراء: علي حمودين، المسعودي قاسم، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، عدد ٢٥، يونيو ٢٠١٦م، ص ٣٠٦.

(٢) نظرية التلقي- مقدمة نقدية: روبرت هولب، ترجمة د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٥.

(٣) نظرية التلقي، والنقد العربي الحديث: أحمد بوحسن، نظرية التلقي- إشكالات، وتطبيقات، سلسلة ندوات، ومناظرات رقم ٢٤، منشورات جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٠، ص ٢٦.

(٤) نظرية التلقي: عز الدين إسماعيل، ص ٣٢.

وجاء وصف (ياوس) التلقي بأنه: "معنى مزدوج يشمل الاستقبال، أو التملك، والتبادل معا"^(١)، وهذا التفاعل بين القارئ والنص هو مناط عملية التلقي بحسب تعريف عبد الواحد محمود لنظرية التلقي بأنها: "عملية التفاعل النفسي، والذهني مع النص القرائي"^(٢)، والتلقي كما يرى (لوفتال) "يستلزم قوة مكيفة اجتماعيًا، ومكيفة نفسيًا على السواء؛ فهو يستلزم الإيديولوجي، كما يستلزم مقاومة الإيديولوجي، ويستلزم إشباع الحاجات، وتنحية هذا الإشباع على حد سواء"^(٣)، هذا التفاعل بين القارئ والنص هو الذي ينتج التأويل؛ فيقبل النص، أو يرفضه، أو يتوقف حال نظمه، وأسلوبه؛ فيحاكيه بأسلوب النبي- صلى الله عليه وسلم -.

ومن سمات نظرية التلقي: تأكيد مثلث العملية التواصلية من منتج، ونص، ومستقبل؛ حتى تكتمل عملية الاستقبال، وهنا يقف النص موقف الاختبار هل يلقي قبولاً، أم لا؛ ومن ثم يتم وضع النص تحت موازين النقد؛ سواء من جهة سبكه حسب تماسك النص ظاهرياً، أو حبه بتماسكه الخفي، أو مقاصد ملقيه، وسماته الشخصية، وسيرته الذاتية؛ لأن الأصل فيه النقل لا التأليف؛ ومن ثم تبدو ازدواجية التلقي؛ لأن المنتج لنص لا ينسبه إلى نفسه؛ فيجازى بالقبول؛ بل يخلق نصاً ينسبه إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، ثم من جهة مقبوليته، وللاستقبال أدوات يجب أن تتوفر في عناصر العملية التواصلية، كما ينظر إلى سياقات إنتاجه لغوياً، ومقامياً، وعاطفياً، واجتماعياً.

(١) جماليات التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: هانز روبرت ياوس، ترجمة: رشيد نبحدو، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٠١.

(٢) قراءة النص، وجمالية التلقي: عبد الواحد محمود عباس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٤.

(٣) نظرية التلقي: روبرت هولب، ترجمة: عز الدين إسماعيل، ص١٣٣.

وما يقدمه النص من أفق التوقعات، والإخباريات، وبخاصة أنه يقدم نصاً دينياً لا يقف عند حدود الجمال، أو الفنية العالية فحسب؛ بل وفق منهج إلهي جاء عن طريق الوحي بلفظ النبي- صلى الله عليه وسلم - ، كما ينظر إلى ما يتناص به النص الموضوع مع النصوص المرفوعة التي تكسبه قوة التركيب، والشهرة التي ربما تجعل النص الموضوع في موضع الهيمنة، والسيطرة، وبديلاً عن النص الأصلي المرفوع حقيقة.

المبحث الأول- طبقات المتلقين بين المقبولية والتناص، والبعد الاجتماعي:

تتنوع طبقات المستقبلين، ومظاهر مقبوليتهم للنص؛ وذلك على حسب قدرة النص على التأثير فيهم؛ وفق آلية التناص التي يبني فيه النص على نصوص أخرى مختزنة في ذهن المتلقي، هذا بالإضافة إلى البعد الاجتماعي، ومحيط انتشار النص، ونعرض - هنا- لهذا التداخل الذي يسهم في تجاوب المتلقين.

أولاً- سوسيولوجيا التلقي، وطبقات المستقبلين:

تهتم نظرية التلقي بالقارئ، ومحيطه الاجتماعي وطبقته، وهو ما يصنع التوازن بين الثقافة، وفعل القراءة، كما تبين دراسة المجتمع صور القراء، واستجاباتهم التي تختلف حسب نوعية كل طبقة، وبخاصة أن القارئ هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وهو الذي يحمل على عاتقه ذبوع نص، وانحسار آخر، وتفاعل القارئ مع النص هو الذي يكتب له الخلود، والبقاء، ولذلك يركز صانع النص على دراسة الأحوال الاجتماعية لمستهلكه؛ حتى يضمن هذا الذبوع، والانتشار.

وقد تجلت دلالات تلقي الحديث الموضوع في غزارة إنتاج الموضوعات في محيط البيئة الاجتماعية؛ إذ تلقاه عامة الناس بالقبول، والولوج فيه، والاستشهاد به في كل محفل؛ فلما حدث ذلك، انبرت أقلام لتصنيف مؤلفات تلاحق هذا الأثر الموضوع؛ لتبينه للمتلقي/ المستهلك، هذا مع عرض أسباب بطلان الحديث حيناً، أو الكشف عن مظاهر عدم الرضا، والقبول له، أو بالكشف عن أحوال رواة هذه الآثار الموضوعية، وهذه الطائفة ذاتها من العلماء، تعد فئة من فئات المتلقين للنص الموضوع، لكن بالنقد والتمحيص.

ومن هذه المصنفات التي تعرضت لبيان وضعه، وتمحيص سنده خاصة، وأحياناً متته كتاب (الموضوعات) لأبي سعيد محمد بن علي النقاش، في القرن الخامس الهجري، وهو من أقدم صور التلقي لهذه الأحاديث بالنقد، والتفنيد، وكتاب (لسان الميزان) لابن حجر العسقلاني، الذي اختصه ببيان المجروحين من الرواة، وجاء بعده كتاب (الأباطيل، والمناكير، والصحاح، والمشاهير) لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الجورقاني، وجمع فيه عدداً من الأحاديث الموضوعة كذباً على رسول الله- صلى الله عليه وسلم -.

وصنف أبو الفرج بن الجوزي كتاب (الموضوعات من الأحاديث المرفوعات)، ومن بعده (موضوعات الصاغاني) لأبي الفضائل الحسن بن محمد العدوي الصاغاني، ثم كتاب (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) الذي جمعه السيوطي، وهو مختصر لموضوعات ابن الجوزي الذي تعقبه، ثم لخصه أيضاً. وسار على نهجه كتاب (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة) لأبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكنانيت، ومن بعده صنع محمد بن علي الشوكاني كتاب (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة)^(١)، هذه المؤلفات تعد مظهرًا من مظاهر التلقي؛ لأنه لما كثر الخبث، وزاد الكذب خشي العلماء من ضياع السنة، وتفشي الجهل، والخرافات، مع هيمنة سلطة الوضع التي لا تقف شهيتها عند حدود؛ فانبرت أقلام لكشف الزيغ، والكذب؛ لأن الواضع متى وضع نصاً، ورآه قد شاع في الناس استحسن عمله، وزاد فيه.

(١) انظر/ مقدمة محقق كتاب الزيادات على الموضوعات، ويسمى (ذيل اللآلئ المصنوعة): جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق/ رامي خالد حاج حسن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٠م، ٦/١.

لون آخر من عملية التلقي للحديث الموضوع يبدو في كتب التخريج التي وضعها العلماء لتخريج أحاديث كتاب ما من كتب التفسير، أو الفقه؛ حتى لا يقع المتلقي فريسة للوضع، والكذب على رسول الله- صلى الله عليه وسلم-؛ لأن علماء اللغة، والتفسير، والفقه ليسوا على درجة واحدة في استقبال نص الحديث؛ ومن أمثلة هذه المصنفات: (نصب الرأية لأحاديث الهداية) للإمام الحافظ جمال الدين الزيلعي الحنفي؛ إذ خرَّج فيه ما ورد من أحاديث في كتاب (الهداية في الفقه الحنفي) لمؤلفه علي بن أبي بكر المرغيناني، وهو من فقهاء مذهب الحنفية، وكتاب (تخريج أحاديث تفسير الكشاف) للإمام الحافظ جمال الدين الزيلعي، و(الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) للإمام ابن حجر العسقلاني قام بتلخيصه من تخريج الزيلعي للكشاف، وزاد فيه ما استدركه على الزيلعي، وكتاب (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) للإمام جلال الدين السيوطي؛ فقد وضعه لتخريج أحاديث كتاب (الشا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، وكذلك كتاب (تحفة المحتاج إلى أحاديث المنهاج) للإمام ابن الملقن، وفيه تخريج لأحاديث (منهاج الأصول منهاج الوصول إلى علم الأصول) للإمام البيضاوي.

وفي العصر الحديث نجد كتاب (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل) لمحمد ناصر الدين الألباني عام ١٩٧٩م، وكتاب (منار السبيل) الذي خرج أحاديثه الألباني، وهو من أمهات كتب مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وفيه ما يزيد على ثلاثة آلاف حديث.

وهذه المؤلفات من كتب التخريج؛ تعد مظهرًا آخر من مظاهر تلقي نص الأحاديث الواردة في كتب الفقهاء، ونقدتها لبيان صحة نسبتها إلى النبي-- صلى الله عليه وسلم-؛ فلا يكتفي العلماء باستقبال ما ورد في كثير من كتب الفقه، والتفسير لشهرة أصحابها، أو صلاحهم؛ فالصلاح ليس شرطاً من شروط القبول؛ فربما كان الفقيه، أو المفسر صالحاً، لكنه ليس له حظ وافر في أصول علم الحديث.

هذا بالإضافة إلى فئات المجتمع التي يمكن حصرها على حسب درجات المعرفة، والعلم في استقبال الأحاديث الموضوعية في ثلاث طبقات اجتماعية مستقبلية، هي: طبقة الوعاظ (الخطباء)، وطبقة المتقنين (المتعلمين)، وطبقة العوام.

١- طبقة الوعاظ، والخطباء:

تعد طبقة الوعاظ طرفاً وسيطاً بين الواضع والمتلقي العامي؛ فهم إذ يستقبلون الأحاديث، وينقلونها إلى غيرهم ظناً منهم بصوابها؛ لما تحمله من آليات الإقناع الخادعة؛ فظاهر الحديث مقبول معناه، وهو كثير من الحكم، والمواعظ التي يقبلها الناس؛ لما لها من أثر واضح في نفوسهم؛ لأنها تعتمد على تجارب سابقة.

الوضّاعون ← الوعاظ/ الخطباء ← جمهور العوام

ويأتي سبب استجابتهم لها؛ لأنهم توارثوا نقل هذه الموضوعات، وسماعها حتى صارت لا تمجها آذانهم، ولا تنفر منها قلوبهم لاستئناسهم بها؛ إذ جرت العادة بتجاوز نقده، وصار البحث عن مصدره في كتب الحديث المعتبرة أمراً لا يرد على الذهن؛ إذ لا شك لدى الخطيب في صحته؛ وذلك نحو حديث (إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ؛ فَقِيلَ: وَمَا خَضِرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبِتِ السُّوءِ)؛ فقد قال الألباني: "هو متروك؛ فقد كذبه الإمام أحمد والنسائي وابن المديني وغيرهم، ولا تغتر بتوثيق بعض المتعصبين له ممن قدم لبعض كتبه، وغيره من الحنفية؛ فإنه على خلاف القاعدة المعروفة عند المحدثين: الجرح المبين مقدم على التعديل؛ ولذا حكم الكوثري بوضعه"^(١).

وشاع بين العلماء أن استقبال الحديث، والعمل به يكون بما يحمله نص الحديث من صواب لغوي، وصواب منطقي يدعو إلى قبوله، وهو ما حمل (ابن عبد البر) على قبول حديث (البحر هو الطهور ماؤه)؛ فقال: "وهذا الحديث لا يصحون مثل

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة، والموضوعية، وأثرها السيئ في الأمة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط١، ١٩٩٢م، ٦٩/١.

إسناده لكن الحديث عندي صحيح؛ لأن العلماء تلقوه بالقبول^(١)، هذا التلقي بالقبول كان لصواب منطق الحديث، وانسجامه مع العقل، كما فطن العلماء إلى مجاراته لأسلوب النبي- صلى الله عليه وسلم- من دقة اختيار اللفظ، وتآلف التركيب، وكثرة المعاني.

ويقع المتلقي من الوعاظ تحت سلطة النص المسبوك الذي يحمل ترغيباً، أو ترهيباً كاذباً "يعلي شأن أعمال على حساب أعمال، ويعظم أعمالا بلا دليل، ويثبت أجوراً وعقوبات لا تثبت، ويحذر من أعمال بادعاءات على الله ورسوله"^(٢)، وهذه الطبقة هي الأكثر استقبالا لنصوص الحديث على اختلاف مشاربه؛ فإذا خدعهم النص ببلاغته المصنوعة نقلوه إلى العامة؛ فشاع فيهم، ولاكته الألسن، ويكون قبولهم له سبباً لاستجابة الطبقات الأخرى، "وعلة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب، والنفوس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها؛ فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له، وحدثت لها أريحية، وطرب، وإذا ورد عليها ما يخالفها قلق، واستوحشت"^(٣)؛ فالقبول للمعتدل، والرفض للمضطرب مما يخالط النفوس، والأفهام.

٢- طبقة المثقفين (المتعلمين):

هذه الطبقة منها ما لا حظ له من الفقه بالحديث إلا ما كان تلقياً من الطبقة السابقة، أو كان من المثقفين الواعين النقدة؛ فقد تتألف هذه الطبقة من شقين: الأول- مثقف غير متخصص، وهو يقبل ما يلقى عليه دون تمحيص، أو نقد لنص الحديث، وتكون استجابته؛ وفق موافقة الحديث لهواه، أو لمذهبه الفكري والعقدي، والثاني - ضرب

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني، والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق/ مصطفى بن أحمد العلوي، وآخرون، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، ١٦/ ٢١٧.

(٢) الآثار السلبية للروايات الواهية، والضعيفة في الدعوة، والوعظ: محمد سعيد حوى، حوايات كلية الآداب جامعة عين شمس، المجلد ٤٦، عدد يوليو- سبتمبر ٢٠١٨م، ص ٣٣٠.

(٣) عيار الشعر: أبو الحسن بن طباطبا العلوي، تحقيق/ عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، مصر، ص ٢١.

من الدارسين لعلوم الحديث، وهم طبقة تميّز المرفوع من الموضوع، ولا تقبل إلا ما تراه متصل السند، وتتحرى الدقة في قبول الحديث، وتحتاط لذلك أشد الحيلة، والحذر، وهذا المتلقي لا يستجيب لزخرفة النص، وخداع سبكه، وطرافة مضمونه؛ بل يبحث في منطقه، وصحة نسبته.

وصنف ثالث - نذكره في سياق تقبل الحديث عموماً، وهو صنف يوجه النقد إلى كتب الصحاح عند البخاري، ومسلم، ولهذا الفريق خلفيات اجتماعية، وثقافية، وفكرية، وعقدية معلنة أحياناً، وخفية في أحيان أخرى، وهذا الصنف من المتلقين قد ينأى بالقبول عن حديث صحيح توافرت فيه شروط الصحة، والسلامة المنطقية، واللغوية للأسباب ذاتها، والمعروف لدى العلماء ما اتسم به قبول البخاري، ومسلم للحديث من خلال شروط وضعوها في غاية الضبط، والتحري في نقل نص الحديث، والحكم على نسبته إلى النبي- صلى الله عليه وسلم -.

طبقة جمهور العوام:

هذه الطبقة التي تموج بالكثير من الطبقات المتداخلة؛ قد تكون الأمية سبباً في إنتاجها، وهم يمثلون المتلقي الإعلامي (الببغاء)، الذي ينشر الأحاديث دون تمحيص، أو نظر، وهو قارئ لا يهتم بالصناعة اللغوية؛ بل بمضمون الحديث؛ فإن وافق هواه قبله، وإن لم يوافق أنكره، ومعيّار القبول عنده الإعجاب بالنص إذا وافق حالة شعورية لديه، وأكثر أحاديثهم المنقولة في أحوال الحياة اليومية، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومن هذا النوع من المتلقين -أيضاً- أتباع غلاة الصوفية؛ الذين ينشرون من الأحاديث ما يوافق مذهبهم؛ فيتلقونه بالقبول إذا جرى على ألسنة أقطابهم، أو أنه شاع عن قصد، أو دون قصد لديهم، وأكثرها أحاديث في آل البيت، والأولياء.

وتدرك آليات القدرة على التأثير في المتلقي من جهة تقديم حجة واضحة كبرهان على ما يقال، هذا مع الإتيان بأسلوب قريب التناول من المتلقي؛ فإذا جمع الواضع بينهما نال ما تمنى بالسيطرة على عقل السامع، وأيقن قبوله بما يقدمه له من أخبار، وتوجيهات.

ويقع اللفظ على هذا النوع من السامعين موقع العسل عند المتذوق؛ لأجل هذا كان استحسان بعض الأحاديث الموضوعية التي تحاكي أحاديث صحيحة، فكما يقول (عبد القاهر): "إنَّ القصد أن يُخْبَرَ بأنَّ السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ في سمعه حالة في نفسه، شبيهة بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوة من العسل"^١، ومقدار هذا القبول يتباين من قارئ إلى آخر حسب درجة الفقه، والمعرفة، والثقافة، والاستعداد النفسي؛ فأصحاب بعض الحرف يرددون أحاديث موضوعية تقبلها نفوسهم؛ لأنها تحدث رواجاً لتجارته، كما أنهم ليسوا على درجة من الفقه تمنعهم من الإسهام في نشر مثل تلك الأقاويل الكاذبة.

وما يعطي هذه النصوص ذيوياً وانتشاراً لدى هذه الطبقة؛ تقبل القارئ لفحوى النص جهلاً، أو بذهن خال من التردد والإنكار، أو قد يكون مستقبلاً حسناً راجباً في الخبر؛ لأنه يقع عنده موقع مؤلفه، ولذلك يصح ما يقال: "إن المعنى لا يستخرج من النص، أو تشكله المفاتيح النصية، بل الأحرى أن يتحقق من خلال التفاعل بين القارئ والنص"^٢، وهذه الطبقة خير معين على استقبال النص، ونقله إلى الآخر.

ثانياً- التناص وأثره في مقبولية النص بين طبقات المتلقين:

تمثل المقبولية إقراراً من المتلقي بصواب النص، وهي صورة من صور الرضا التام من المتلقي لما ينثره الكاتب من جمل، وتراكيب، وأفكار، حيث يبدأ القبول النصي للتركيب بخلوه من الأخطاء اللغوية؛ ليمتد هذا الرضا إلى التسليم بسلامة النص لغوياً، وسياقياً، ودلالياً، وفكرياً، هذا المعيار المهم من إثبات نصية النص، وتكاتف وحداته النصية، هو على حد قول (دي بوجراند) بأنه: "يتضمن موقف مستقبل النص، إزاء كونه صورة من صور اللغة، ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام"^٣، ثم يكمل و"للقبول أيضاً مدى من التغاضي، في حالات تؤدي فيها المواقف إلى ارتباك، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل

^١ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، طبعة المدني بالقاهرة، ص ٩٨.

^٢ نظرية التلقي مقدمة نقدية: روبرت هولب، ترجمة/ د. عز الدين إسماعيل، ص ٢١.

^٣ النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.

والمنتج"^١، فوجود الاشتراك في الغاية، والهدف، والمنفعة بين المنتج والمستقبل، هو الذي يكتب للنص مقبوليته، وكما يرى (فاندايك) أن "المقبولية رغبة نشطة للمشاركة في الخطاب"^٢، وهي تمثل صورة من صور التواصل، بين القارئ والنص من جهة، وبين القارئ ومنشئ النص.

وعنصر المقبولية بما يمثلها في الدراسات النصية كمعيار لقياس مدى رضا المتلقي؛ يقوم على أسس من تضافر عنصرين هما: السبك الرابط بين المفردات، والجمل على مستوى البناء السطحي للنص، والحبك الذي يمثل الترابط العميق غير الملحوظ بعلاقات دلالية تفهم من سياق الكلام، وكذا ما يمثلها معيار التناص من تأثير في المتلقي المحمل بنصوص حديث مرفوعة قريبة من النص المصنوع، يتخذها الواضع مطية؛ لإقناع متلقيه الذي يحمل هذه النصوص.

فيعتمد الواضع على نص سابق مرفوع؛ ليصنع نصاً جديداً مبنياً عليه، أو أن يضيف إلى ذلك النص السابق جملة واحدة، عن قصد ووعي منه؛ لإقناع المتلقي، والتناص هو ما "يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة، سواء بوساطة، أم بغير واسطة"^٣، وعندما يتعاضد المعياران -المقبولية والتناص- يكون للثاني دور في الأول؛ لأن الواضع للنص يستشهد بما استقرت بصوابه النصوص المرفوعة؛ ليقع السامع أسير هواه؛ لذا فمعيار القبول كثيراً ما يقع عن جهل كما يرى (أمبرتو إيكو) "إن القارئ المصاب بقصور موسوعي؛ يجد نفسه على قاب قوسين أو أدنى مما يعوزه"^٤، فهو يقبل ما يلقيه القاصد/ الباحث، دون أعمال لفكر بالقبول أو الرفض؛ بل يكون في حكم المستهلك الخالي من الاختيار.

^١ السابق.

^٢ علم النص مدخل متداخل الاختصاصات فاندايك، د. سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١١٤.

^٣ النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.

^٤ القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي، المغرب ط١، ١٩٩٦م، ص٦٨.

والترغيب في العمل المقصود، أو الترهيب والتخويف من عمل آخر، لا يخلو من دوافع ومقاصد خفية لمنتج النص، ثم إن النص كعلامة من العلامات، أو رمز من الرموز يمكن تأويله من خلال التركيب، وسياق النص، وتجري صناعته واختلاقه من خلال تناصات، وسياقات نبوية صحيحة، ويمكن فهم ما وراءه من دوافع مذهبية، أو تعصب لأفكار خاصة أحياناً، هو ما يدفع واضع النص إلى انتهاز هذا المسلك.

ودور المتلقي الذي يؤول النص، أن يفهم مراد المرسل وفق آلية المقبولية؛ لذا كان منهج التلقي ضرورياً في فهم خطوات تفاعل القارئ مع النص، وتأويله لبلوغ الصورة التي يبينها المتلقي للنص من وجهة نظره، وقد جعل هذا للقارئ سيطرة على النظام العام للتفاعل بين أركان العملية الإبداعية؛ إذ خيوط اللعبة باتت في يديه، وهو محور انتشار النص، وذيوع صيت منتجه، أو هو منتهى موت النص، وتحلله، وإهماله.

والحديث الموضوع الذي توارى فيه منتجه الحقيقي -ذو الأغراض، والمقاصد الخفية- خلف شخصية النبي- صلى الله عليه وسلم - تارة، أو خلف أسلوبه تارة أخرى، فنسب له ما لم يقله؛ رغبة في استثارة القارئ، وقطع المسافة في إقناعه بالنص، هو يعلم حقيقة أن القارئ إذا جاءه الخبر مرسلًا دون تحديد منتجه، أو جاءه باسم الواضع؛ لن يلقي لديه القبول، وخاصة أننا إذا استعرضنا الوضّاعين والكذابين لن نجد لهم حضوراً في الساحة الفكرية، أو الثقافية؛ فهم خاملو الذكر، ليس لهم من العلم، والفهم، والتأويل شيءٌ ذو بال، يجذب إليهم القارئ.

وقد تبدو بعض النصوص قريبة التناول، لا تحتاج إلى تأويل؛ لانسجامها مع النفس، إذ هي صحيحة المعنى لكنها غير صحيحة المبنى، هذا ما يدعو القارئ إلى تأويل النص؛ فيقبل بهذا النص الموضوع لقبوله من قبل بنص مرفوع، ولكن معيار القبول في النص النبوي المرفوع الصحيح هو صدوره من فم النبي - صلى الله عليه وسلم- ؛ لأن منطق اللغوي، ونظم أسلوبه لا يشاركه فيه أحد.

ومن صور التناس مع حديث مرفوع ما ورد في اعتماد حديث موضوع على هيئة المرفوع، من استعمال أسلوب الحوار مع افتتاح النص بمفتتح حديث صحيح، نحو قول الواضع: "يا رسول الله إن القرآن يتفلت من صدري، قال: أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته، قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: صل ليلة الجمعة أربع ركعات، في الأولى: بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية: بفاتحة الكتاب وبحم الدخان وفي الثالثة: بفاتحة الكتاب وبألم السجدة، وفي الرابعة: بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله تعالى _ إلخ"^١، فافتتح الحديث بلفظ نبوي مشهور من حوار النبي - صلى الله عليه وسلم - مع عبدالله بن عباس؛ إذ قال له: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ)^٢، وقد عمد الواضع إلى حيلتين: الأولى: الافتتاح بلفظ (إنني أعلمك) المفتتح به حديث صحيح، والثانية: حرص الراوي على طريقة استدعاء المحاور؛ ليكون الأسلوب أنجع في التعبير، وأكثر تأثيراً في النفس، إذ يوجه السائل سؤالاً ثم يعقب ذلك الجواب، ويقع هذا اللون موقعاً مقبولاً يوافق التساؤل كثيراً من المهتمين بالجواب، وذلك لأن اختيار السؤال لا يكون عرضاً؛ بل يعرف الواضع أهميته لدى المتلقي، الذي ينتظر الإجابة بشغف يجعله يقع أسير النص دون وعي، أو إدراك لصحته، أو لضعف الصياغة، والركاكة، لفظاً ونظماً؛ ولهذا يعلق (الشوكاني) قائلاً: "الحديث يقصر عن الحسن فضلاً عن الصحة، وفي ألفاظه نكارة"^٣، فطول النص، وركاكة الأسلوب من عيوب النص الظاهرة.

وقد يتناص الحديث الموضوع مع آخر مرفوع، فيحمل الواضع جلّ النص الأصل؛ نحو: حديث "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَالْأَذَانِ وَخِدْمَةِ الْقَوْمِ فِي السَّفَرِ لَأَقْتَرَعُوا عَلَيْهِ"^٤، ونص الحديث المرفوع عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَأَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَأَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي

^١ الفوائد المجموعة، ص ٤١.

^٢ سنن الترمذي، ٢٤٨/٤، رقم ٢٥١٦.

^٣ الفوائد المجموعة، ص ٤١، ٤٢.

^٤ الفوائد المجموعة، ص ٢٨.

الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا^١، وفي هذا الحديث يحاكي الواضع حديثاً صحيحاً، مستفتحاً بما استفتح به الصحيح، لكنه قدم الصف الأول على النداء، وإذا كان الحديث المرفوع قد راعى ترتيب الحدوث، فبدأ بالأذان، ثم الصف الأول؛ وهذا ما أهمله الواضع، ثم إنه انحرف عن بقية الحديث؛ ليضع ما يريد من الترغيب في خدمة القوم في السفر، ولعله أراد أن يرغب الآخرين في خدمته، أو خدمة من يحب، وختم الحديث بذكر المعنى دون نص الحديث المرفوع، فقال: (لاقتربوا عليه)؛ وفي المرفوع (لاستهموا عليه)، وبذلك يكون قد خدع متلقيه، فغير وبدل، وانتقل من أسلوب فصيح إلى أسلوب عامي دارج، فقد انتشر لفظ القرعة بين العامة دون كلمة الاستهام وهي الأصل، إذ كانت تجري باختيار سهم من السهام مكتوب عليه افعل أو لا تفعل، وكأن الواضع قد عمد إلى تيسير اللفظ على متلقيه العامي؛ فغير النص.

أما ما يكون من استجابة القارئ، فإن سياق الحديث الذي بُني على حديث مرفوع؛ يجذب السامع إلى العمل به، ونشره لما فيه من الفضائل المزعومة التي لم يقلها النبي- صلى الله عليه وسلم-، ونحو: حديث: "إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ إِلَّا رَكَعَتِي الصُّبْحِ"^٢، والحديث يتناص مع حديث مرفوع، زاد فيه الواضع جملة: (إلا ركعتي الصبح)، وما في زيادته قيمة تذكر؛ إلا رائحة الكذب، وتعمد الوضع، والرغبة الخفية في اضطراب الحديث؛ ليقف المتلقي تجاه النصين موقف المفاضل، وهذا يضر بالحديث المرفوع، وقد تبين مما سبق سلطة التناص في تلقي النص الموضوع؛ لما في العقل من مخزون ثقافي يحفز المتلقي على القبول.

ويجري مجراه حديث: "صَدَقَةُ الْفُطْرِ عَلَى كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ذَكَرٍ وَأُنْثَى يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ: نِصْفُ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ"^٣، فاستعمل الواضع نص المرفوع؛ ليزيد فيه زيادته، وقد يفهم من هذه الزيادة إقبال غير المسلمين على الوضع، فقد وضع ما ينفعه؛ معتمداً على نص مسلم به لدى المسلمين.

^١ صحيح البخاري، ١/١٢٦، رقم: ٦١٥.

^٢ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: هَذِهِ الزِّيَادَةُ لَا أَصْلَ لَهَا، وَفِيهِ: حَجَّاجُ بْنُ نَصِيرٍ وَعِبَادُ بْنُ كَثِيرٍ ضَعِيفَانِ، انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٣.

^٣ رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، وَزِيَادَةُ (يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ) مَوْضُوعَةٌ تَفَرَّدَ بِهَا سَلَامُ الطَّوِيلُ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ، انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٦٠.

المبحث الثاني - مقارنة تجاوب المتلقي مع الحديث الموضوع وفق مفاهيم النظرية:
تعتمد نظرية التلقي على عدد من الرؤى في قراءة أثر النص في المتلقي، وتأثيره في بنيته، وتوجيه المرسل لاختيار ما يوافق ذوقه، ومزاجه، وقد تميزت هذه النظرية ببيان خصائص الوجه الثالث من العملية التواصلية؛ ذلك الوجه الذي يكون فيه المتلقي شريكاً أساسياً في صناعة النص، فانقل من كونه مستهلكاً إلى منتج، ومن صور المشاركة: القارئ الضمني، والمسافة الجمالية، واندماج الآفاق، والسجل النصي وفق نظرية (آيزر)، وأفق توقع النص، وحال التلقي بين الفني، والجمالي، والإقناعي.

أولاً- القارئ الضمني:

إن بنية النص لا تستقيم إلا من خلال افتراض وجود متلق يستقبل النص، فالنص كالبضاعة؛ يريد منتجها أن تجد رواجاً، لذا يفترض قارئاً مستقبلاً له سمات خاصة، وهو لا يسمو إلى ذلك فحسب؛ بل يبحث عن إرضائه؛ كي يعينه على نشر النص وذيوعه، وعلى هذا فـ"القارئ الضمني كمفهوم؛ له جذور متأصلة في بنية النص، إنه تركيب لا يمكن بتاتاً مطابقته مع أي قارئ حقيقي"^١
والقارئ الضمني يؤكد على الفكرة القائلة: إن "بنية النص تتوقع حضور متلق، دون أن تحدده بالضرورة، هذا المفهوم يضع نية مسبقة للدور الذي ينبغي أن يتبناه كل متلق على حدة"^٢، فلا يُقدم المنتج على إنتاج عمل إلا إذا توافرت البيئة المناسبة لنصه، فهو لا يضع نصاً ليقرأه هو؛ بل ليقرأه غيره، ويتأثر به، فتلك طبيعة داخلية في نفس كل منتج.

^١ فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب: فولفغانغ إيزر، ترجمة: حميد لحميداني، والجيلاني الكدية، مكتبة المناهل، المغرب، ص ٣٠.

^٢ فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ص ٣٠.

فافتراض المتلقي يتداخل تداخلاً كبيراً عند اختيار الوحدات النصية، وعند بنائها؛ فافتراض قارئ ضمني خفي؛ يؤكد أهميته لمؤلف النص، في تحديد جهات التجاوب مع نصه؛ لأنه "شبكة من البنى المثيرة للاستجابة، مما يدفع القارئ لفهم النص"^١؛ لأجل هذا كثيراً ما يميل واضع الحديث إلى اختلاق أحاديث على هوى المتلقي (القارئ الضمني)، فعند استقراء كتاب (المجموعة) -وهو أحد الكتب الجامعة للموضوع كأنموذج-؛ يتبين غلبة كتاب على كتاب، أو باب على باب؛ فنجد باباً ليس فيه أحاديث كثيرة، أو لا يكاد يتجاوز الواحد، وآخر يكثر فيه الوضع، وهذا الاستقراء يعكس مقاصد الواضع، واستجابة المتلقي.

فبالرجوع إلى فهرس كتاب (المجموعة) بالتفصيل، والإحصاء في زيادة بعض كتب الموضوعات، وتفوقها على بعض؛ ما يعطي إشارة ودلالة لغلبة قضايا على أخرى، قد تكون سهولة الوضع، أو مقبولة سريعة التجاوب بين المتلقين، أو مما يهم المتلقي في معاشه، ويومه.

فتتصدر أبواب: مناقب الخلفاء، وأهل البيت، وسائر الصحابة، والأطعمة، والأشربة، والصدقة، والنكاح، وفضل العلم، وفضائل القرآن، والصلاة، والمعاملات، والصيام، وذكر معاوية، وذكر فاطمة، والجهاد، والحدود.

وتقل أبواب؛ نحو: كتاب الطلاق، وكتاب القضاء، ومن كتاب الصلاة، وأحاديث كتب التسبيح، والحاجة، والحفظ، والتوبة، والصلاة عند دخول البيت، وصلاة قضاء الدين، والأدعية، والعبادات في الشهور، وذكر عمار بن ياسر، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس.

وعلى حد قول (روبير اسكاربيت): "إن الكاتب إنما يكتب لقارئ، أو لجمهور من القراء، فهو عندما يضع أثره الأدبي؛ يدخل في حوار مع القارئ، وللكاتب في هذا الحوار نوايا مبيتة؛ يريد إدراكها، فهو يرمي إلى الإقناع، أو المد بالأخبار، أو الإثارة، أو التشكيك، أو زرع الأمل، أو اليأس"^٢، وهو ما تؤكد الكثرة في قضايا، على حساب القلة في قضايا أخرى.

^١ فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية، فولفجانج إيزر، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م، ص ٤٠.

^٢ قراءت في مناهج الدراسات الأدبية: حسين الواد، سراس للنشر، تونس، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٦٩.

ثانياً- المسافة الجمالية:

يضع (ياوس) من بين أسس التلقي لبنة مهمة في بناء نظرية تلقي النص، هي المسافة الجمالية، ويعرفها بأنها: "ذلك البعد القائم بين ظهور الأثر الأدبي نفسه، وبين أفق انتظاره، ويمكن الحصول على هذه المسافة من خلال استقراء ردود أفعال القراء على الأثر الأدبي؛ أي من تلك الأحكام النقدية التي يطلقونها عليه"^١، والمسافة الجمالية -التي نقصدها هنا- هي تلك الاستساغة للنص الموضوع، ويمكن لنا الاستفادة من هذه الصورة إذا قيست بمدى الانتشار، والقبول حتى أنك تجد النص على ألسنة العوام، والمتقنين؛ بل والخطباء من هذه النصوص، ومما أورده (الشوكاني) في الموضوع فقال: حديث: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"^٢، وهو حديث ذائع الصيت، مع وجود ضعف في سنده عند العلماء، ولكن معناه مقبول، وصياغته موجزة، تجذب القارئ، مع سهولة الاستشهاد بها.

وحديث: "اتق شر من أحسنت إليه"^٣؛ فللبنية دور في حسن استقبال النص؛ حيث الإيجاز، والطباق الخفي بين الشر والخير، وما يحمله معناه من إرضاء نفس المتلقي، إذا أحسن إلى أحد؛ ابتغاء منفعة، ثم وجد مقابل ذلك ضرراً؛ فهو يستدعي النص عندئذ؛ مستشهداً بهذا النص المنسوب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، مؤكداً على صدق النص، وحكمته، ودقة وصفه، مع الاغترار بجمالية البناء، على فهم أعمق للمعنى، ونقده، مع أن هذا النص تنفيذه ولا تؤكد نصوص حديثية، وآيات قرآنية؛ كما في قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠)، والدفع بالإحسان يحتاج إلى الصبر، وعدم انتظار الجزاء؛ حتى يستجيب المحسن إليه.

^١ نظرية القراءة المفهوم والإجراء: عبد الرحمن تبرماسين وآخرون، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٨.

^٢ الفوائد المجموعة، ص ٨٣.

^٣ السابق.

ومثله ما ورد في حديث: "موت الغربية شهادة"^١، فهذا النص لم تثبت صحته؛ بل ضعفه، ونسبه إلى الوضع كل ثقة، فلم ينطق به رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وقد سلك الواضع في وضع النص سبيلاً، اعتمد فيه على رواية فسرها كما استقبلها، هي رواية (ابن حبان): "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: تُوْفِّي رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -، فَقَالَ: "يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ، قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ"^٢، وهذه غير الأولى؛ لأن الأولى مطلقة في نسبة الشهادة إليه، ولم تحدد نوع الهجرة، ولا أسبابها الداعية إلى عدّه من الشهداء، أما الحديث الثاني: فلم يحدد الشهادة؛ بل نسب إلى ذلك الرجل أجراً واسعاً، وفي الكلام حذف للصفة؛ فالأصل: الرجل المؤمن، أو ما شابه، وفي الحديث الصحيح: "عن عمر أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، قال: "الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"^٣، فالأصل النية في الجزاء، وهي أمر مستور؛ يجازي به الله تعالى على العمل.

ومن صور المسافة الجمالية في التلقي تلك الأحكام النقدية التي ذكرناها من قبل لعلماء الأثر، ونقدم لتلك النصوص في كتب الموضوعات، وفي تخريج كتب الحديث؛ لبيان السليم من السقيم.

^١ قال الشوكاني: في إسناده: متروكان، وروى من طريق آخر بلفظ: من مات غريباً مات شهيداً. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٢٦٨.

^٢ صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ١٩٦، رقم ٢٩٣٤.

^٣ صحيح البخاري، ٢٠/١، رقم ٥٤.

ثالثاً- اندماج الآفاق:

أطلق عليه (ياوس): "منطق السؤال والجواب، الذي يحصل بين النص وقارئه، عبر مختلف الأزمان، والعصور"^١، هذه المحاور بين القارئ والنص؛ هي التي تنتج لنا نصاً جديداً، ومع كل قراءة تزيد النصوص المخلقة، هذا ما يجعل قارئاً واعياً بالأسلوب النبوي يصف نصاً بالزيادة، أو النقص؛ نحو ما روي عن جابر بن سمرة، أن رجلاً سأل رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "أَتَوْضَأُ مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: إِنْ شَبِثَ فَتَوْضَأُ، وَإِنْ شَبِثَ فَلَا تَوْضَأُ، قَالَ أَتَوْضَأُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَتَوْضَأُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ، قَالَ: أَصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَصَلِّي فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: لَا"^٢، وكلام النبي - صلى الله عليه وسلم- ينسجم مع العقل والمنطق؛ على حد قول (عبد القاهر): "ليس الغرضُ بنظمِ الكلامِ أن توالَتْ ألفاظُها في النطق؛ بل أن تناسقتْ دلالتها، وتلاقَتْ معانيها على الوجهِ الذي اقتضاهُ العقلُ"^٣، وفي هذا الحديث زيادة تناقلتها كتب الحديث، بأن الإبل خلقت من الجان، أو الشيطان؛ فعن الحسن، عن عبد الله بن مغفل، قَالَ: "وَكُنَّا نُوْمِرُ أَنْ نُصَلِّيَ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَلَا نُصَلِّيَ فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ"^٤

وهي منكرة لعدم اتفاقها مع المنطق، والعقل، والنص القرآني، هذا الخطأ نتج عن تلقي كتب الحديث لتعليق عبد الله بن مغفل -راوي الحديث- فظنها العلماء من الحديث دون تدبر أو نظر، لذلك - وفق مفهوم وجهة النظر الجواله- يرى (إيزر): "أن القارئ يجول في النص، فلا يمكن أن يفهمه دفعة واحدة إلا من خلال المراحل المختلفة، والمتابعة للقراءة، بدءاً من البنيات الظاهرة، وصولاً إلى البنيات الخفية، التي تشكل بنيات الغياب في النص"^٥.

^١ نظرية القراءة المفهوم والإجراء، ص ٣٩.

^٢ صحيح مسلم، ١/ ٢٧٥، رقم ٣٦٠.

^٣ دلائل الإعجاز، ص ٥٦.

^٤ مسند أحمد، ٢٧/ ٣٤٣ رقم ١٦٧٨٨.

^٥ فعل القراءة، فولفغانغ إيزر، ص ٥٧.

فقد جعلوا تفسير (ابن مغفل)، أو تعليقه جزءاً من الحديث، وتلقته كتب الحديث محتفية بصحته؛ منها: مصنف ابن أبي شيبة، وصحيح ابن حبان، وصحيح ابن ماجة، ومسند أحمد بن حنبل وغيرها، ونص الحديث عندهم: "روى الحسن البصري -رحمه الله- عن عبد الله بن المغفل -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَلَا تَصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ^١، ولم يشر النسائي إلا إلى النهي عن الصلاة في أعطان الإبل، فقال: "عن الحسن، عن عبد الله بن مغفل، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- نهى عن الصلاة في أعطان الإبل"^٢.

ويرجع ذلك إلى صغر حجم الماشية من الغنم؛ فلا تؤذي عند مجاورتها، أما الإبل؛ فلضخامتها يقع منها الضرر لا محالة، وإذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رخص لقاطني تلك المواضع أن يُصلُّوا في مرائب الغنم لطهارتها؛ فإنه لم ينه من يصلي في أعطان الإبل؛ لعدم طهارتها، أو للسبب الذي تلقاه رواة الأحاديث خطأ، لأن حركة الإبل قوية سريعة، واحتمال حدوث الضرر منها مؤكد؛ لذا نهى عن الصلاة في مواضعها، وسبب زيادة عبد الله بن مغفل هو ذات السبب الذي نهى لأجله الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الصلاة، وهو سرعة الإبل في إيقاع الأذى، فكان تعليق عبد الله بن مغفل فهماً منه لطبيعة هذه الناقة، التي تشبه حال الجان في خفة حركتها مع تحقق الضرر؛ كقول الله -تعالى- عن عصا موسى -عليه السلام-: (وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (القصص: ٣١)، لكن (عبد الله بن مغفل) لم يستعمل التشبيه؛ بل حملها على الحقيقة، وكأن الأمر ثابت، هذا ما سبب تفاوتاً في استقبال النص، فكانت الزيادة في الذيل بعد نص مرفوع صحيح، أكثر قبولاً، وتجاوباً لدى المتلقين.

١ سنن ابن ماجة ١ / ٢٥٣، رقم ٧٦٩.

٢ سنن النسائي، ٢ / ٥٦، رقم ٧٣٥.

رابعاً- السجل النصي:

هو تلك البيئة الصالحة لبذر نص ما، يؤتي أكله من خلال تاريخ يعلمه واضع النص؛ فإذا وضع الواضع نصاً في فضائل الإمام (عليه السلام)، فإنه سيلقى تجاوباً في بيئة تقبل ذلك، أما إذا وضع النص ذاته في بيئة أخرى -كالخوارج مثلاً-، فإن النص لن يلقي هذا القبول؛ فالسجل النصي مهم لإدراك السياق الملائم، وهو "عبارة عن مجموعة من المعايير، والمواضع، والاتفاقات التي تكون سابقة عليه، ومعروفة لدى جمهور المتلقين، التي يستطيع بفضلها أن يخلق وضعية سياقية مشتركة بينه وبين القارئ"^١ ويبيّن (إيزر) مصطلحه هذا على القول باعتماد النص، في إحالة محتواه إلى نصوص ثقافية، أو اجتماعية سابقة؛ لذا يظهر "أن علاقة النص بمرجعياته تتأسس عبر صيرورة معقدة، وأن المعنى لا يتقدم جاهزاً، إنما يتحدد من خلال تلك الصيرورة التي تلعب فيها القراءة دوراً أساسياً"^٢؛ نحو حديث: "إن الله أمر النبي أن يأكل من طبق جاء به إليه جبريل من رطب الجنة، وأمره أن يواقع خديجة فحملت بفاطمة"^٣.

فقد اعتمد واضع الحديث على مستقبله من الشيعة، الذين يقرون بتفرد فاطمة - رضي الله عنها- كما يقر غيرهم، من أهل السنة والجماعة لا شك، لكن الواضع بالغ؛ فوقع في خطأ تاريخي، جعله عرضة لسهام النقد، والرفض من قبل نقاد الموضوعات، ولكن الواضع من خلال قراءته لمجتمع المستقبلين لم يأبه بهذا الخطأ، ومضى في نظم النص الذي لقي قبولاً عند جمهوره، وذيوعاً من خلال اعتماده على معنى مقبول، له سياق مرجعي، عقدي خاص بفئة معينة، وبحسب مستويات المعنى

^١ من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٢٣.

^٢ فعل القراءة: بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات فولغانغ إيزر (نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات)، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٢٤، منشورات كلية الآداب، الرباط، ص١٥٣.

^٣ والحديث -لا شك- أنه كذب، ففاطمة - رضي الله عنها- ولدت قبل النبوة، راجع/ الفوائد المجموعة، ص ٣٨٨.

في رؤية (إيزر) فإنه يشير إلى "أن النص لا يظهر المعنى في نمط محدد من العناصر، إنما يتأسس وفق مستويات تظهر إلى الوجود، بفعل الإدراك الجمالي؛ فهو يرى أن هناك مستويين تتم وفقهما عملية متواصلة؛ لبناء المعنى، تحتل خلالها العناصر التي تسهم في ذلك البناء مواقعها، بالانتقال من المستوى الخلفي (السياق المرجعي) إلى المستوى الأمامي (النص)"^١، ومثل ذلك حديث: "سب أصحابي ذنب لا يغفر"^٢.

وهذا ما تؤيده مستويات المعنى من ادعاء صحة النص، فمعناه مقبول عند المستمعين من ناحية المرجعية الثقافية، والمستوى الجمالي القائم على الإيجاز، والتهديد، والوعيد، والنهي الضمني عن سب الصحابة، وهو أمر غير مقبول، ولا مبرر له، لكن الواضع عمد إلى هذا؛ لما ظهر بين المذاهب الخارجة من استباحة سب الصحابة، فأتى الواضع بنص يرهّب من ذلك؛ فعلاقة النص بسجله النصي وسياق إنتاجه أمر لا مفر منه؛ لأن استقبال النص لا يكون إلا من خلال الخلفية المعرفية، والثقافية للقارئ، وبخاصة في الأمور العقيدة، والفكرية، والمذهبية.

خامساً- أفق التوقع:

تعد آلية أفق التوقع من آليات تلقي القارئ للنص، وهي عند (امبرتو إيكو): الاستراتيجية النصية (استراتيجية المتلقي أو النص)، ولعل أفق توقع القارئ لنص ما يجعلنا نتساءل: "ماذا يتوقع القارئ أن يقرأ في النص؟ هذا التوقع، وهو المقصود؛ تحدده ثقافة القارئ، وتعليمه، وقراءته السابقة، أو تربيته الأدبية والفنية"^٣، ويمثل الخطاب سبيلاً إلى ذم المؤلف، واستهجانه، أو قبوله والاستجابة له؛ لأن "الاتكاء على ردود الفعل لدى المتلقي لا تؤثر في المبدع فحسب؛ بل إن أثرها الأول يكون في الخطاب الأدبي، بالرفض أو القبول، ثم ينزاح الأمر إلى المبدع تبعاً"^٤.

^١ الأصول المعرفية لنظرية التلقي: ناظم عودة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٧م، ص١٥٤.

^٢ الفوائد المجموعة، ص٣٨٦.

^٣ المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م، ص٣٢٣.

^٤ قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٠٥.

والمؤلف/ الوضّاع -هنا- يتوارى خلف نص منسوج، حيناً بعناية ودقة، وحيناً آخر يوافق هوى المتلقي، ولا تظهر شخصية الواضع؛ بل يقدم شخصية النبي- صلى الله عليه وسلم- وهي شخصية تحظى بالقبول عند المتلقي، ودور هذا المؤلف الخفي أن يقنع سامعه بما اقتنع به هو، لكن مع التخفي خلف من يحظى بالقبول، والرضا لدى السامع، وكثير من النصوص ذاع صيتها وانتشر فقط؛ لافتتاحها بجملة: (قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-)، فلهذه الجملة أثر نفسي عند الناس؛ بل إن بعضهم ينكر على من يرد نصاً افتتح بها، حتى إن كان المنكر له يرجو أن يضعه في ميزان نقد الحديث؛ للثبوت من صحته، ورفعته إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-.

وقد رأى (الجاحظ) للمتلقي قيمة، لا تقل عن قيمة المرسل؛ بل يستوى أمرهما في بيان النص واستبانته؛ يقول: إن "مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل"^١؛ فلم يفرد الفضل لأحدهما على الآخر؛ بل جعله مشتركاً، وإن قدّم المفهم على المتفهم لفضيلة العلم والتعليم؛ لأن مجال التفضيل جاء في سياقها، لكن ما يلفت النظر اهتمام (الجاحظ) بالمنتج والمستقبل على حد سواء.

وأفق الانتظار من مفاهيم نظرية التلقي التي ركز فيها (ياوس) على إنتاج النص، وما يسبق عملية التلقي من تأسيس اجتماعي وتاريخي للنص؛ فيرى أن النص "حتى في لحظة صدوره لا يكون ذا جدة مطلقة، تظهر فجأة في فضاء؛ فبواسطة مجموعة من القرائن، والإشارات المعلنة، أو المضمرة، ومن الإحالات الضمنية، والخصائص التي أصبحت مألوفة، يكون جمهوره مهياً سلفاً؛ لتلقيه على نحو معين، فكل عمل يذكر القارئ بأعمال سبق له أن قرأها، ويكيّف استجابته العاطفية له، ويخلق منذ

^١ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ص٢١.

بدايته توقعاً ما لتتمة الحكاية، ووسطها، ونهايتها"^١، وأفق الانتظار -عنده- تكمن في أفق انتظار أدبي داخلي، يشمل البنية الداخلية للنص، وأخرى خارجية، تمس الناحية الاجتماعية، وظروف إنتاج النص.

وبتغيير الأفق وإعادة النظر في المسافة الجمالية التي أنتجها النص في ذهن القارئ؛ يحدث ذلك الاصطدام بين القارئ والنص، عند مخالفة رؤيته لمحتوى النص، وهنا يكون تغيير الأفق ناتجاً عن شك القارئ في نسبة النص إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لأسباب؛ منها: مخالفة النص لقواعد اللغة، أو مخالفة نص حديث صحيح مشهور، أو مخالفة نص قرآني، أو دعوة النص إلى فئة، أو جماعة؛ فيرى (ياوس) "أن قوة المعيار الجمالي المعدل بهذا الشكل، تظهر بجلاء حين يغيّر الجمهور رأيه في الأعمال التي حظيت حينئذ برضاه؛ معتبراً إياها بالية لاغي، فكيف عن ارتضاءها؟ لذلك فإن مراعاة تحولات الأفق؛ كفيلة -وحدها- بجعل تحليل الأثر الأدبي يكتسي أهمية تأريخ أدبي للقارئ، ويجعل المنحنىات الإحصائية المتعلقة بالكتب ذات الرواج الكبير تكتسي قيمة المعرفة التاريخية"^٢، ظهر ذلك جلياً في تركيز الؤضّاعين على القضايا التي كتبوا فيها، من خلال تلمسهم حاجات الناس في تيسير العسير، وتعظيم ما يرونه هيئاً من تعاليم الدين.

ومن دواعي تأليف النص، ووضع الأحايث؛ رؤية الؤضّاع حاجة المتلقي إلى نص يتفق مع هواه، سواء طلب المتلقي ذلك، أو رأى منتج النص ذلك، من خلال حال مجتمعه وأحوال المتلقين، فأثار ذلك غريزة الؤضع عنده، وهو يرى أن أفق توقع النص، وبشائر ثماره دانية؛ لحسن استقباله وذيوعه، فكان هذا سبباً في الإقدام على الؤضع.

^١ جماليات التلقي، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبرت ياوس، ترجمة: رشيد بنحدو،

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٧.

^٢ جماليات التلقي، ص٤٩.

ولا يمكن إغفال النص والمجتمع وفق نظرية سوسيولوجيا الأدب؛ إذ الأدب رسالة اجتماعية، وما يقوم به الواضع يسمو في تقديره إلى كونه يقدم خدمة دينية واجتماعية، وهو يدرك خطأه أحياناً، أو يجهله، ويظل البحث قائماً حول ما يضره واضع النص من أفكار، ويتجلى ذلك في فضائل السور؛ التي وضعت ترغيباً في قراءة القرآن، وأحاديث التعصب؛ التي وضعت لإنصاف فئة على أخرى... وغيرها.

سادساً- التلقي بين الفنية والجمالية والإقناع:

كلما كان النص أسراً، قريباً من المعقول بنية، ومن النفوس جمالاً؛ تلقاه القارئ، وزادت شهرته، وكثر تناقله، وعلى حد قول (إيزر): إنه لا بد أن يجمع النص بين الفنية والجمالية؛ لأن "العمل الأدبي قطبين قد نسميها: القطب الفني، والقطب الجمالي، الأول: هو نص المؤلف، والثاني: هو التَّحَقُّق الذي ينجزه القارئ"^١، ولكل من المنتج والمتلقي دور في عملية التواصل بينهما، فبينما تكون مهمة منتج النص فنية، نجد دور المتلقي جمالياً في المقام الأول؛ حيث إن "المتعة الجمالية تتضمن لحظتين: الأولى؛ تنطبق على جميع المتع، حيث يحدث استسلام من الذات للموضوع؛ أي من القارئ للنص، والثانية؛ تتضمن موقفاً يؤطر به القارئ وجود الموضوع، ويجعله جمالياً"^٢؛ لذلك يقول (محمد مفتاح): "إن الأمر يبدأ في الصعوبة حينما تتجاوز المقاصد المؤلف إلى مقاصد النص، ولا تدرك مقاصد النص إلا بالقراءة التخيلية؛ هذه القراءة التي تعير الاهتمام إلى الموضوعات الفنية التي صيغ بها النص"^٣، ويقع ذلك في النصوص التي تجمع بين الفنية، والجمالية، كتلك التي تحمل مجازات بيانية؛ لتوصيل الصورة للمتلقي؛ نحو حديث: "يأتي على الناس زمان

^١ فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ترجمة: حميد لحميداني وآخرون، مكتبة المناهل، المغرب، ص ١٢.

^٢ نظرية الاستقبال: رؤية نقدية، روبرت سي هولوب، ترجمة: رعد عبد الجليل، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٢م، ص ٩٢.

^٣ النص من القراءة إلى التنظير، محمد مفتاح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٨٠.

فيه ذئاب، فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب"^١، فقد بنى الواضع نصه فنياً على موروث ثقافي معرفي، يكشف عن تدهور القيم كلما تقدم الزمان، ولذلك جاءت صياغته مبتدأة بالفعل المضارع الدال على الاستقبال، ونكر الزمان؛ لعدم التخصيص، وأتى بالاستعارة في كلمة الذئاب؛ أي: أناس كالذئاب، مكرراً لفظ الذئاب ثلاث مرات، ومقدماً حججاً على ضرورة الاستعداد لهذا الزمن القادم.

فجمع بين الفنية والجمالية، وبين الإقناع، وعلى حد قول (ابن الأثير) إن من مراوغات منتج النص، واستدراجه لمتلقيه، عندما يقدم حججاً على ما يقول تسهم في إذعانه؛ يقول: "فليس الغرض ذكر بلاغته فقط؛ بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة، في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم"^٢، ولا يقتصر الاهتمام بالنص عند صواب تركيبه اللغوي، أو بنائه الفني؛ بل هناك أمور أدق، تتصل بأهمية النص وسلطته؛ "لأن النص ليس مجرد تدوين للحفظ والتسجيل، ولكنه يمثل سلطة توجيه، وتقنين، وتشريع"^٣، هذه السلطة التي تظهر في الاستعمال التداولي للنص، الذي يحمل "قوة سحرية في الاستشهاد به، كقول مأثور، أو حكمة شعبية، أو بيت شعر، وكأن الخطاب العقلاني المعاصر لا يكفي للإقناع؛ إلا بعد تطعيمه بسلطة النص"^٤، ومن الأحاديث الشائعة التي تحمل بعداً حجاجياً؛ حديث: "كما تكونوا يولى عليكم؛ أو يؤمر عليكم" و"الناس على دين ملوكهم"^٥، والنصان موجزان، تعلو فيهما الفنية في الصناعة، وهما يخاطبان حال الناس؛ ويتدفق الإقناع من بينيتهما الجمالية، ويضع الواضع فيهما خبرات وتجارب، مبيناً حال الناس مع الحاكم، في علاقة طردية استنبطها الواضع.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢١٥.

^٢ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر؛ لضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحמיד، المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٩٥م، ٦٤/٢.

^٣ قراءة النص: الهرمينوطيقا والتأويل، حسن حنفي، تأليف مشترك بين عدد من الباحثين، دار قرطبة للطباعة والنشر، المغرب، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ١٢.

^٤ قراءة النص، حسن حنفي، ص ١٣.

^٥ الفوائد المجموعة، ص ٢١٠.

وصناعة النص الموضوع -عموماً- تستدعي مثيراً أو دافعاً، هذا الدافع يمكن قارئ النص الموضوع من أن يعي دواعي الوضع، وأسبابه في كثير من النصوص الموضوعية؛ لأن منها ما يختص بترغيب في أمر، أو تنفير من آخر، وهي تعتمد على المباشرة والتقرير، لذلك لا يقع النص إلا حيث يوجد الدافع للصناعة؛ فقد يضع حديثاً في النهي عن أمور نحو: "بروا آباءكم تبركم أبناءكم، وعفوا تعف نساؤكم"^١، فيقدم دليلاً وبرهاناً مع النهي لا يُردّ لقوة بيانه؛ وهكذا كانت علاقة النص الموضوع وثيقة الصلة بطلب الإقناع، وما ينتهجه الواضع من تلاعب بجوهر البلاغة؛ إذ يعتمد على وظائفها وآلياتها، وعلى حد قول (أوليفيروبول) إنه: "ينتمي إلى البلاغة - بالنسبة إلينا- كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث: المتعة، والتعليم، والإثارة مجتمعة متعاضدة، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج"^٢، ولهذا يكون الوضع عبارة عن بلاغة مراوغة، تعتمد محاكاة الأسلوب لا الأسلوب نفسه.

وكثير من النصوص صحيحة المعنى، لو كانت حكماً لكانت أكثر تأثيراً في المتلقي، الذي تفقد عنده هذه النصوص عذوبتها، وجمالها، وحجاجها؛ عندما يكشف حقيقة وضعها، وعدم نسبتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

^١ يقول الشوكاني: في إسناده: كذاب. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٢٠٣.

^٢ الخطاب الأدبي بين بلاغة التلقي وتلقي البلاغة، مجاهد بوسكين، مجلة اللسانيات التطبيقية، مجلد ٦، عدد ٢، سنة ٢٠٢٢م، جامعة الجزائر، ص ٢٢٢.

المبحث الثالث- صور تلقي الأحاديث الموضوعية، ومقدار الاستجابة:

تتعدد صور تلقي الأحاديث الموضوعية؛ نظراً لتعدد الهدف من الوضع، ولما كانت دواعي الوضع متنوعة المشارب، والأغراض، الظاهرة منها والخفية؛ تنوعت عملية الاستجابة، وهنا نرصد عدداً من الصور لتلقي النصوص، وقبولها، مع بيان مقدار الاستجابة.

أولاً- تلقي أحاديث فضائل السور:

اتسمت أحاديث فضائل السور بسمات أسلوبية، تجعلها مقبولة عند السامع؛ منها اختصاص كل سورة بحديث يناسب مضمون بنائها، وقضاياها التي تعرضت لها، لهذا اختلفت الأحاديث تبعاً لكل سورة، وقد استغل الوضّاعون وجود أحاديث صحيحة في فضائل بعض السور أو الآيات؛ فساروا على نهجها في وضعهم، ويغلب على هذا الوضع الترغيب في القراءة.

ومن ثم استجاب لهذه الأحاديث نوعان من المتلقين: الأول: المفسرون، والثاني: عامة الناس، وربما كان لتلقي المفسرين لهذه النصوص الموضوعية أثره البالغ في ذيوها وتوسعها؛ لأن كثيراً من العامة يحسبون المفسر ناقدًا لهذه الآثار، وقد أكثر (الزمخشري) من هذه النصوص الموضوعية، فلا تخلو سورة من تذييل لها بحديث موضوع لم ينتب من صحته؛ فقد "استشهد الزمخشري بالحديث وعني بتوظيفه في تفسيره في نواح شتى؛ لكن فاته ما هو أهم، وهو المعرفة بفن التصحيح، والتضعيف، والعناية بالمتون، والأسانيد"^١، ووقع في هذا كثير من المفسرين والفقهاء.

وذكر (الشوكاني) أربعاً وستين حديثاً وضعت في فضائل القرآن، أوردها في كتاب (الفوائد المجموعة) الذي اختصه البحث بالنظر؛ كنموذج جامع لهذه الأحاديث الموضوعية؛ يقول: "حديث: من قرأ فاتحة الكتاب، أعطي من الأجر كذا، فذكر فضل

^١ منهج الزمخشري في التعامل مع الحديث النبوي، د. خيرى أحمد محمد عبد العزيز، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مجلد ٣٢، عدد ٦٠، يوليو ٢٠٢٣م، ص ٨٥٤.

سورة سورة، إلى آخر القرآن"^١، ويعلق (الشوكاني) كمتلق ناقد لهذه الأحاديث؛ قائلاً: "ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع، وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم؛ كالثعلبي والواحدي والزمخشري، ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن"^٢، فعزا سبب الوضع إلى عدم اختصاصهم. وقد يحكم (الشوكاني) متلقي الأحاديث الموضوعية وناقدها، فيعلق على وضع حديث لركاكة لفظه، وسوء نظمه؛ نحو حديث "إذا قام أحدكم من الليل فليجهر بقراءته، فإنه يطرد بقراءته مردة الشياطين، وفساق الجن، وإن الملائكة الذين في الهواء، وسكان الدار ليصلون بصلاته"^٣.

والوضع ظاهر على مستوى اللفظ، ومستوى التأليف، فلا فرق بين الشياطين وفساق الجن، إذ هما شيء واحد؛ فكأنه أعاد التركيب مرة أخرى، ولم يقدم جديداً، ثم إنه جاء بتأليف أسلوب الشرط الذي قيّد أموراً حقها الإطلاق؛ فجعل الجهر أفضل لما ذكر من أسبابه، والمعروف أن المزوجة بين الجهر والخفوت في القراءة مستحب في قراءة القرآن؛ قال تعالى: (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (الإسراء: ١١٠)، والمراد بالصلاة -هنا- قراءة القرآن؛ فقد سبق الآية حديث عن القرآن؛ قال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: ١٠٦)، يقول (الطاهر بن عاشور): "ومعلوم أن من فسّر الصلاة بالعبادة المعروفة، فإنما أراد قراءتها خاصة؛ لأنها التي توصف بالجهر والمخافتة"^٤.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢٩٦.

^٢ السابق، ص ٢٩٦.

^٣ يقول الشوكاني: وهو متن طويل، ساقه صاحب اللآلئ، وفيه نكارة شديدة، وألفاظ يعرف من نظرها أنها موضوعة. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٠٥.

^٤ التحرير والتنوير، ٢٣٧/١٥.

وفي حديث: "من قرأ قل هو الله أحد مائتي مرة، كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة إلا أن يكون عليه دين"^١، تناقض واضح؛ فلا علاقة بين الحسنات التي تُقتَرَف، وأداء الدين، وقد علق الواضع مستثنياً في بنائه التركيبي أمراً على آخر لا ترابط بينهما، ولم يرد في ذلك نص يقوي ما ذهب إليه؛ وإنما أراد أن يحث المتلقي على أداء الدين ترهيباً منه.

ومثله من وجه آخر، ما جاء ترغيباً في حفظ القرآن؛ نحو حديث: "من حفظ القرآن نظراً خفف عن أبويه العذاب، وإن كانا كافرين"^٢، فبنى الواضع الفعل، وهو حفظ القرآن؛ للوصول إلى الجواب، وهو التخفيف عن والديه في العذاب، ولا علاقة بين الحفاظ وتحقيق العذاب؛ بل الدعاء لهما هو المعروف، ومن الأثر المرفوع ما يبين امتداد عمل الوالد من الصالحات بدعاء الولد، فعن أبي هريرة، أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"^٣، وفي الحديث وردت كلمة (أبويه) دون والديه؛ لتقديم الأب على الأم، والأقرب في عمل الصلاح تقديم الأم على الأب؛ فيقال: (والديه)، وأمر آخر هو التخفيف عن الكافر، وهذا لم يرد في نقل صحيح.

وفي سياق الفضائل أيضاً قد يضع الحديث واضعاً ركيك الأسلوب؛ يتبين لمتلقيه سوء صياغته للوهلة الأولى؛ كما في حديث: "من قرأ القرآن فله مائتا دينار، فإن لم يعطها في الدنيا أعطيها في الآخرة"^٤، وعلامة الوضع عدم تناسب الجزاء بين العمل وثوابه، فمن قرأ القرآن أعطي من الحسنات لا الدنانير؛ فالدنانير جزء من الحسنات الدنيوية، وبالغ الواضع في تأكيد الجزاء، واستدرك محاولاً حبك النص.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٣٠٤.

^٢ السابق، ص ٣٠٨.

^٣ صحيح مسلم، ١٢٥٥/٣، رقم ١٦٣١.

^٤ الفوائد المجموعة، ص ٣٠٨.

ووضعت أحاديث أثناء فتنة خلق القرآن؛ نحو حديث: "القرآن كلام الله، لا خالق ولا مخلوق، من قال غير ذلك؛ فهو كافر"^١؛ ففي الحديث مغالاة في وضع النص، فقد أقدم الواضع على الكذب؛ ليقنع السامع بنص حديثي يقبله المتلقي؛ وقد عرضه الواضع في صورة معجزة نبوية، يسبق فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - أحداث القصة، ويقدم تحذيراً للخائض في فتنة خلق القرآن، التي جرت أحداثها قبل الخليفة (المأمون)، وأيام حكمه، وتعليق (الشوكاني) يوضح هذا التجاوز في الوضع، وعدم الحياء لما في الخبر من كذب واضح، وتعتمد التأليف، وإصرار على تكفير من اجتهد وأخطأ، ولعل واضعه قد ضاق زرعاً بالفتنة؛ فوضع هذا النص.

ثانياً- تلقي حديث أدرج فيه جزء ليس منه:

من الأحاديث النبوية لون يعرف بالحديث المدرج، وهو: "ما أدرج في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كلام بعض رواته، بأن يذكر الصحابي أو من بعده عقيب ما يرويه من الحديث كلاماً من عند نفسه، فيرويه من بعده موصولاً بالحديث، غير فاصل بينهما بذكر قائله، فيلتبس الأمر فيه على من لا يعلم حقيقة الحال، ويتوهم أن الجميع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -"^٢، فقد يقع -أحياناً- على سبيل الغلط، أو التوهم، أو الجهل، وأحياناً على سبيل التعمد، نحو: "حديث: أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله"^٣، فقد استغل الواضع جزءاً صحيحاً، وأدخل بعده استثناءً خادعاً يذكر فيه المشيئة؛ ليقنع سامعه، هنا يبرز أسلوب توظيف الحق في غير موضعه، فمشيئة الله في كل أمر واقعة، لكنه وضعها في غير موضعها؛ فقد قضت مشيئته إلا أن يكون خاتم المرسلين، وفي الحديث تناقض ظاهر؛ لأن كونه

^١ قال الشوكاني: الحديث موضوع، تجرأ على وضعه من لا يستحي من الله تعالى، عند حدوث القول في هذه المسألة في أيام المأمون. راجع/ الفوائد المجموعة، ص ٣١٣.

^٢ معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، المؤلف: عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، نقي الدين المعروف بابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، سوريا، ١٩٨٦م، ص ٩٥.

^٣ يقول الشوكاني: والاستثناء موضوع، وضعه أحد الزنادقة. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٢٠.

خاتم المرسلين؛ معناه انتهاء النبوات والرسالات، وختمه بالمشيئة؛ يفتح باب تكذيب؛ كونه الخاتم، في خداع لفظي هو السبيل إلى إخفاء خداع عقدي، ويقع النص موقع القبول عند فئتين: المصدق للنص المكذوب، وأتباع من ادعى النبوة بعده-صلى الله عليه وسلم-، وهذا النص خاص بفترة شاع فيها هذا الادعاء.

ثالثاً- تلقي أحاديث وصف النبي لنفسه:

ومن الأحاديث المشهورة؛ تلك التي وصف النبي- صلى الله عليه وسلم - بها نفسه؛ نحو: "حديث: أنا أفصح من نطق بالضاد"^١، ومعناه صحيح مقبول؛ لذا كثر تناقل نصه، وبخاصة في كتب البلاغة عند ذكر تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ ولكن كثيراً من المدققين أنكروه؛ فقال الحافظ (ابن كثير): "وأما حديث: "أنا أفصح من نطق بالضاد" فلا أصل له"^٢، ونقله مفسرون؛ لانسجامه مع العقل، والنقل ظاهراً، وخفي عليهم عدم وروده على لسان النبي- صلى الله عليه وسلم-، مع تحقق وصفه له، ولكن مثل هذه الأحاديث ذاع صيتها؛ لمدحها بلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم-، ولم تفرق في استجابة قارئها بين العلماء، أو الأدباء، أو العامة؛ لمنزلة النبي- صلى الله عليه وسلم-، وإقرارهم ببلاغته، وأغلب الظن أنه لم يرد له سند صحيح يعرف منه وصف النبي - صلى الله عليه وسلم-، به لنفسه، بل أخفى وأضعه فيه تعصباً لقريش، أو لبني سعد بن بكر؛ إثباتاً لفضلهما في البلاغة، والفصاحة، والبيان على سائر العرب، وهنا يخفى التعصب على المتلقي؛ لانسجام الجزء الأول من الحديث مع الواقع، وهو من الأحاديث التي لم يقل بها النبي - صلى الله عليه وسلم-، وإنما قبلت لصدقها في وصفه؛ لكنها لم ترد عنه.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٣٢٧.

^٢ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، عام ١٩٩٩ م، ١/١٤٣.

وقد وقع (الزمخشري) في قبول هذا الحديث، واستشهد به بعد أن وصف بلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم-، خير وصف؛ قائلاً: "قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: أُوتِيتْ جَوَامِعَ الْكَلَمِ، وَقَالَ: أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بِيَدِ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَاسْتَرْضَعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ"^١، فحتم (الزمخشري) حديثه في وصف منطق النبي- صلى الله عليه وسلم-، بهذا الحديث؛ مصدرًا له بقوله: قال عليه السلام، وذكر الحديث غير مثبت من صحة سنده.

ومثله حديث: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"^٢، وجل العلماء على عدم معرفة إسناد صحيح له؛ إنما شاع وذاع لحسن معناه، وإيجازه البليغ، وشدة شبه أسلوبه بأسلوب النبي- صلى الله عليه وسلم-.

رابعاً- تلقي النص على سبيل الغلط:

صنف من الوضع يقع على سبيل الغلط؛ لصحة معناه، وإيجاز لفظه، وهو أمر يربك المتلقي، فقد اشتهر في الناس، وذاع نصح وهماً على أنه حديث صحيح؛ نحو حديث: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار"^٣، والحديث سمعه (ثابت بن موسى) من شيخه (شريك) لما دخل عليه وكان يملئ، فظن (ثابت) أن هذا حديثاً؛ إنما كان شيخه يصفه، وظل (ثابت) يحدث به على أنه حديث.

^١ الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢، ١/١١.

^٢ يقول الشوكاني: لا يعرف له إسناد ثابت. انظر/ الفوائد المجموعة ص٣٢٧، ويقول الزركشي: حديث أدبني ربي فأحسن تأديبي معناه صحيح؛ لكنه لم يأت من طريق صحيح. انظر/ كتاب فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ، ١/٢٢٤.

^٣ قال العقيلي: باطل ليس له أصل وقد ذكر له في اللآلئ طرقاً لا تخلو عن كذابين ومجاهيل، وكون واضعه ظنه حديثاً لما سمعه من شيخه، يقول من جهة نفسه لا يخرج عن كونه موضوعاً. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٥.

وعلق (محمد فؤاد عبد الباقي) على الحديث قائلًا: "معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن وشهادة التجربة، لكن الحفاظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت، وأخرج البيهقي في الشعب عن محمد بن عبد الرحمن بن كامل؛ قال: قلت لمحمد بن عبد الله بن نمير: ما تقول في ثابت بن موسى؟ قال: شيخ له فضل، وإسلام ودين، وصلاح وعبادة، قلت: ما تقول في هذا الحديث؟ قال غلط من الشيخ، وأما غير ذلك فلا يتوهم عليه، وقد تواردت أقوال الأئمة على عد هذا الحديث في الموضوع على سبيل الغلط لا التعمد، وخالفهم القضاعي في مسند الشهاب فمال في الحديث إلى ثبوته السندي"^١، وهو من بين الموضوعات التي يقع فيها لغط، فيختلف الأئمة في الحسم بوضعه، ويظل عالقاً عرضة للنقد والتمحيص.

خامساً- تلقى النص المبني على نص صحيح:

يكثر لدى الوضّاعين بناء نص موضوع على نسق نص صحيح؛ يأتي على حسب فهم الواضع للنص المرفوع؛ نحو حديث: "مَنْ نَامَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَاخْتَلَسَ عَقْلُهُ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"^٢، فلم يرد نص صحيح يؤكد ما ذهب إليه واضع الحديث، من اختصاص النوم بعد العصر بالجنون، والثابت أن نوم القيلولة هو المحبب من بعد صلاة الظهر إلى وقت دخول العصر؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "كُنَّا نُبَكِّرُ بِالْجُمُعَةِ وَنَقِيلُ بَعْدَ الْجُمُعَةِ"^٣ فقد أراد الواضع أن ينفّر من وقت، لم ينفّر منه رسول الله- صلى الله عليه وسلم -؛ لعلمه بصحة أحاديث تحدثت عن فترات يستحب فيها النوم من النهار، والمعنى؛ أنه إذا حسن النوم في موضع، فلا يحسن في آخر؛ لأن النهار للمعاش وليس للسكون، ولكن القيلولة تتوسط النهار؛ لذا كانت أولى، والنص لم يثبت نوم القيلولة؛ لكنه اعتمد على استجابة المتلقي لنص القيلولة، وذيوعه، وانتشاره، فأراد أن يضع نصاً ينفّر الناس من غيرها، وليس هناك مردود يعود على الواضع؛ إلا أنه اجتهد اجتهداً أضر به، وقد اتخذ من أسلوب الشرط سبيلاً لربط فعل الشرط بجوابه؛ ليؤكد على تحقق الجزاء إذا تحقق الفعل؛ فالجنون مآل من نام بعد هذه الصلاة، وقد لقي الحديث قبولاً؛ لكونه تأكيداً على أفضلية نوم القيلولة.

^١ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١/٤٢٢.

^٢ الفوائد المجموعة، ص ٢١٦.

^٣ صحيح البخاري، ٧/٢، رقم ٩٠٥.

سادساً- تلقي النص بسنطة التخويف:

قد يستقبل المتلقي نص الحديث الموضوع؛ رهبة من مضمونه، ولكنه إذا تدبر ألفاظ النص؛ تبين له أن ما كان سبباً في القبول هو عينه سبب الرفض؛ نحو حديث: "مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يَغْدُ إِلَيَّ فَقَدْ جَفَانِي"^١، فإذا وقفنا على اختيار لفظ الجفاء في نص الحديث؛ نجده غير مقبول، إذ كيف يكون المرء مجافياً، وقد حفظ حق الله، وحق رسوله؛ إلا أنه لم يستطع زيارته، فالنبي- صلى الله عليه وسلم - لا يشق على أمته في الأمر بالزيارة؛ بل أمرهم بالصلاة والسلام عليه؛ تنفيذاً لأمر الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(الأحزاب: ٥٦)، فعن أنس قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم -: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"^٢، فالحب شيء، والزيارة شيء آخر، وإذا كان الواضع قد أثر لفظاً غليظاً؛ ليكون أكثر أثراً في نفس المتلقي، فقد أسهم لفظه هذا في تداول النص بين العامة، والخاصة.

ومن الروايات التي تردد فيها الجفاء، ما ذاع من ادعاء حديث قدسي نقله المفسرون كحديث: "من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ ولم يصلي فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ وصلى ولم يدعني فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ وصلى ودعاني ولم أحبه فقد جفوته، ولست برب جاف"^٣؛ يقول (د. محمد الشحات الجندي): "مما يدل على وضعه أن الوضوء بعد الحدث، والصلاة بعد الوضوء؛ إنما ذلك من المستحبات، والحديث يفيد أنهما من الواجبات؛ لقوله: (فقد جفاني) ، وهذا لا يقال في الأمور المستحبة"^٤، فمخالفة النص لنقل صحيح؛ يظهر اضطرابه، ووضعه.

^١ قال الشوكاني: رواه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك، وابن حبان في الضعفاء، وابن الجوزي في الموضوعات، وقال ابن تيمية والنووي: إنه موضوع لا أصل له، وقال السيوطي في الذيل: وكذا ما روى بلفظ: من لم يزرنى فقد جفاني، وقال الصغاني هو موضوع، وكذا بلفظ: من حج ولم يزرنى فقد جفاني، وكذا قال الزركشي وابن الجوزي. انظر/ الفوائد المجموعة ص ١١٧ - ١١٨.

^٢ صحيح البخاري، ١٢/١، رقم ١٤.

^٣ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وأثرها السيء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض ط١، ص ٤٤.

^٤ <https://www.elbalad.news/> ٢٠٢٧٥٠٦ الأربعاء ١٢ مارس ٢٠١٦م

سابعاً- تلقي النص تعصباً:

كثير من النصوص التي تلقى استحساناً من فئة من الناس؛ تحمل بعداً من التعصب لمذهب، أو جماعة، أو فرد، لكن مثل هذه الأحاديث تقع عند الناقد موقع الرفض، وهي سهلة في استنباط عوامل النبذ، والطرح لها، لما تضمنته من روائح العصبية الكريهة؛ نحو حديث: "إن كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي، فجاء رجل فقال: ما نسبك؟ فقال العرب: قال فما سببك؟ قال الموالي: يحل لهم ما يحل لي، ويحرم عليهم ما يحرم علي".^١، لكن مع سوء بناء النص، ونكارة منته؛ يلقي القبول لدى الطائفة الممدوحة، ويشيع فيهم، ويتداول بين طبقاتهم، بل ويفخرون به، ولا يكذبونه، وفي الحديث بخس لمن آمن من غير هذين الجنسين.

كما ينتج التعصب المذهبي -على حد ما هو متعارف في تلك البيئات- نصوصاً موضوعية، ينقلها أصحاب المذهب، وتشيع بين العامة؛ كما في حديث: "يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ، أَضُرُّ عَلَى أُمَّتِي مِنْ إِبْلِيسَ، وَيَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو حَنِيفَةَ، هُوَ سَرَّاجُ أُمَّتِي"^٢، حيث بين الحديث مفاضلة الواضع بين مذهبين كبيرين في الفكر الإسلامي، ولكنه يتعصب لمذهب، أو لشيخ فيضع الأحاديث؛ لجذب الناس إلى ما يحب، وتغييرهم عما يكره، ويعتمد في بناء الحديث على أسلوب السجع؛ كما بين (إدريس) و(إبليس)، وعلى الجناس الناقص في الكلمتين؛ لتجد موقعها عند السامع، وقد يقع المتلقي لقمة سائغة لتلك النصوص؛ إذا كان متعصباً لغير الشافعي، أو كان الأمر لا يهمه، ولا يُعنى بمنزلة الشافعي، فبعض الاختلافات المقبولة في الفهم بين المذاهب؛ تدفع الوضّاعين لصياغة تلك النصوص، والمغالاة فيها؛ لأن لها قبولاً في نفس طائفة من المتلقين، ونظراً "لأن تلك المشادة لم تقتصر على أصحاب الحديث؛ بل كان لأصحاب أبي حنيفة النصيب الأوفر من اختلاق الحكايات في مناقبه، بل جاوزوا ذلك إلى وضع الأحاديث"^٣، فيتراشق أدعياء التعصب للمذاهب بنصوص وضعوها؛ مبالغة في جذب الناس إلى هذا المذهب أو ذلك.

^١ قال الشوكاني معلقاً على منته: في هذا المتن نكارة، لا تخفى على من له ممارسة لكلامه صلى الله عليه وآله وسلم. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٢١.

^٢ الفوائد المجموعة، ص ٤٢٠.

^٣ التنكيل بما في تأنيب الكوثرى من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المَعْلَمِي اليماني، تحقيق: علي بن محمد العمران وآخرون، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٤هـ، ١/٢٠٠.

وإذا كان نص الحديث السابق قد أساء إلى طرف دون آخر، معتمداً على فكرة المقابلة؛ لبيان فضل أبي حنيفة؛ فإن نصوصاً تتخذ من تفضيل قبلي هدفاً للإقناع بالتفضيل؛ نحو حديث: "عَالَمٌ قُرَيْشٍ يَمَلَأُ الْأَرْضَ عِلْماً؛ يعني: الشافعي"^١، فقد اتخذ الواضع من نسب الشافعي؛ فرصة لإقناع المتلقي، وللمتلقي دور في نشر هذا النص؛ لما له من أثر في نفسه، إذ قدم الواضع برهاناً على تفوق الشافعي، هو أنه من قريش، فكأنه بالقياس يضع السبق لقريش على غيرها؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - منها، وقد جمع الواضع صنفين من التعصب؛ أحدهما قبلي، والآخر مذهبي في نص واحد، والمتلقي هو فريسة هذا الخلاف.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٤٢٠.

المبحث الرابع- ملامح بنائية وظواهر أسلوبية في النصوص الموضوعية:

تكثر تلك الملامح وهاتيك الظواهر التي يعتمد عليها واضعو الأحاديث، لما لها من سحر الاستقبال لدى السامع، فتنوع أساليبهم التي يعتمدون فيها على أنساق معينة ذاع صيتها في الحديث المرفوع؛ نذكر منها أمرين مهمين: الإيجاز، والافتتاح؛ فيؤثرون ظاهرة الإيجاز في النص رغبة في سرعة الحفظ؛ فكلما كان النص موجزاً قصيراً ذاع وانتشر، بالإضافة إلى العناية بعتبة الافتتاح التي كانت أكبر همهم؛ فتتوعد البدايات تبعاً لتنوع مضمون النص، وهي غاية عندهم، ووسيلة.

أولاً- ظاهرة إيثار الإيجاز في بناء النصوص الموضوعية:

يؤثر بعض الوضّاعين نسج النص موجزاً من خلال قلة عدد كلمات الجملة، والتركيز على فكرة محددة دون تطويل، مما يقوي استقبال النص عند متلقيه، الذي تخدعه زخارف التركيب القصير؛ فيقع في شرك القبول.

وللإيجاز قدرة على الإقناع والتأثير، وبخاصة أنه من "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه"^١، وللإيجاز بلاغة ظاهرة، "وأصل بلاغته في هذه الوجازة، التي تعتمد على ذكاء القارئ، والسامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله، وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة، ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير"^٢، فيؤثره الواضع، والمتلقي لتلك اللمحة الدالة فيه.

ومن صور الإيجاز في الحديث الموضوع؛ حديث: "حَبَّذا السَّوَاكُ يُزِيدُ الرَّجُلَ فَصَاحَةً"^٣، فقد ورد في النص إيجاز يغري بالقبول؛ نظراً لأهمية السواك في الحياة النبوية، وعنايته به، والدعوة إليه، ولكن الواضع رغب في السواك؛ فزاد بما لا علاقة له باستعماله، فلا علاقة بين استعمال السواك، وزيادة الفصاحة، واعتمد الواضع على الاستفتاح بالمدح؛ الذي يحسن في مواضع الترغيب في الأعمال، وجاء استعمال (الرجل) في النص في غير موضعه؛ فالأسلوب يقتضي لفظ (المرء)؛ لأن السواك مما يستوي فيه الاستحباب بين الذكر والأنثى، لكن نظراً لإيثار الواضع مدح الفصاحة؛ كان (الرجل) بها أولى عنده.

^١ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٧٠/٢.

^٢ خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ص ١٥٤.

^٣ قال الصغاني: وضعه ظاهر. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ١١.

ووردت في السواك أحاديث مرفوعة موجزة كثيرة؛ نحو قوله-□-: "السواك مطهرة للنفوس مرضاة للرب"^١، وهو موجز أيضاً لأن الحديث عن السواك يحتاج إلى الإيجاز في وصف فوائده؛ لسهولة الحفظ والنقل، وقد ركز الحديث المرفوع على عمل السواك في تطهير الفم، فهو الآلة التي يذكر بها المرء ربه.

وسبب شيوع النص؛ ما بين السواك والفصاحة من علاقة ظاهرة؛ إذ الفصاحة مترتبة على العناية بالفم، الذي هو آلة البيان والإعراب عما في النفس.

وقد يعتمد الواضع إلى جانب وجازة التعبير على الاستعارة؛ نحو حديث: "الْوُضُوءُ عَلَى الْوُضُوءِ نُورٌ عَلَى نُورٍ"^٢، فجاء بتوظيف الاستعارة لأثرها في الإقناع، من خلال تركيبها، الذي لا تستطيع ألفاظ الحقيقة بيانه إلا بألفاظ كثيرة، فجمع بين الإيجاز والاستعارة؛ لتكثير المعاني، والحث على الفعل، وفي الحديث تأكيد بإعادة التركيب، لكن مع التغيير في الدلالة الأسلوبية؛ لإضافة البعد المعنوي إلى جانب الحسية في التركيب الأول، وفصل بين التركيبين؛ لأن الثاني يفسر الأول ويقويه، وفي النص ترغيب في كثرة الوضوء، وهو أمر غير مطلوب من جهة الشرع، ولكن حسن استقباله؛ لوجازته، ومبالغته في النظافة؛ التي ترغب فيها النفوس.

وورد حديث موجزاً في النهي عند الصلاة في غير المسجد، وبخاصة إذا كان المقيم إلى جواره، ففي حديث: "لا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ"^٣، استعمل الواضع أسلوب النفي، والاستثناء القائم على الحصر، فقد حصر صلاة جار المسجد فيه دون مراعاة لأحواله، ونفى ذلك عما عداه ممن يسمع النداء.

ولم يرخص النبي- صلى الله عليه وسلم - ذلك لمن له عذر كالعمى، فقد جاء أعمى إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، فقال: إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الصَّلَاةِ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَرْخَصَ لَهُ أَنْ يَصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ، قَالَ لَهُ: أَسْمَعْ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَجِبْ"^٤.

^١ السنن الكبرى، للنسائي، ٧٥/١.

^٢ قال العراقي في تخريج الإحياء: لم أقف عليه. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ١١.

^٣ رواه ابن حبان عن عائشة مرفوعاً وقال: عمر بن راشد: لا يحل ذكره إلا بالقدح. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٢١.

^٤ صحيح سنن النسائي، صحيح أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط ١، ١٩٨٨ م، ١/١٨٥، رقم ٨٢٠.

فالقول الفصل في إجابة الصلاة هو السماع؛ فعن النبي- صلى الله عليه وسلم -، قال: "مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِنْ عُذْرٍ"^١، فلم يفرق الحديث بين جار المسجد وغيره، فالأصل سماع النداء، وهو ما أكدت عليه الأحاديث الصحيحة المرفوعة، ولكن الواضع بالغ في ترهيب من جاور المسجد؛ ولم يُجب، فأتى بأسلوب فيه تخويف، وركن إلى أسلوب القصر، مقروناً بإيجاز العبارة، مع أن جار المسجد هو أحد الذين يسمعون النداء، وأسلوب القصر أخرج من الإجابة من لم يجاور وسمع النداء، والحديث المرفوع أبلغ في الإحاطة، والشمول لكل من سمع ولم يُجب، ولكن ذاع صيت هذا الحديث؛ لما رأى الناس من تكاسل من جاور المسجد، وسمع النداء ولم يجب، فكان استعماله تارة تصريحاً، وتارة تعريضاً بالتقصير.

وفي حديث: "الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان"^٢، جاء النص ركيك الصياغة، لا فائدة ترتجى من بنائه، وقد اعتمد الواضع على الابتداء بكلمة الإيمان، ثم فسرهما، وعرفها تعريفاً يجذب النفوس إليها، فقيد النص بما لا يفيد، واتكأ على حسن التقسيم مع السجع في الفقرتين الثانية والثالثة، وتدرج من المعرفة إلى القول، ثم العمل، في أسلوب جدير باستجابة القارئ غير المدقق في النص، وعدل عن الجوارح إلى لفظ الأركان؛ مبالغة في السجع، الذي لم يكن موفقاً مقبولاً.

ومن الإيجاز أيضاً؛ حديث: "ليس في الحلي زكاة"^٣، وهو نص ابتدئ بالنفي بليس، وجرى على بناء حديث صحيح؛ فعن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، قال: "ليس في العبد صدقة إلا صدقة الفطر"^٤، وتقديم المسند إليه على المسند؛ أفاد تأكيداً للحكم، وتقوية له، واهتماماً بالمقدم وهو الحلي، ونكر لفظ الزكاة؛ للتعميم، فلا زكاة عنده -مطلقاً- على كل ما كان زينة للمرأة تتحلى به، وهذا التضييق والتقيد في النص؛ هو ما أخرج من صحة المعنى، قبل صحة النسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم-.

^١ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ٢٦٠/١، رقم ٧٩٣.

^٢ رواه الطبراني، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، وقال ابن الجوزي: هو موضوع، آفته أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي، وتابعه من يروي الموضوعات. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٤٥٢.

^٣ الفوائد المجموعة، ص ٦١.

^٤ صحيح مسلم، ٦٧٦/٢، رقم ٩٨٢.

وجاء النص موجزاً حد الإخلال الرديء؛ لأنه أراد أن يقول: إنه لا زكاة فيما لم يبلغ النصاب، لكنه نفى أن يكون في حلي المرأة عامة، سواء بلغ النصاب أو لم يبلغه، فغلط، والنص الوراد في إخراج زكاة ما بلغ النصاب أقرب إلى العقل، حتى لا يتخذ الناس ذلك ذريعة للاحتيال، والالتفاف حول مراد الزكاة، ومن ذلك حديث عائشة - رضي الله عنها- قالت: "دخل عليّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ؛ فرأى في يدي فَتَخَاتٍ من ورق، فقال: ما هذا يا عائشة؟!، فقلت: صنعتهن أترين لك يا رسول الله! قال: أتؤدين زكاتهن؟، قلت: لا؛ أو ما شاء الله، قال: هو حَسْبُكَ من النار"١، وقد استقبل المتلقون الحديث؛ لوجازة عبارته، وتأويله بما بلغ النصاب عند بعضهم، ولكن إمكانية فهم معنى مضاد للمعنى المقصود؛ هو ما يخرج تلك النصوص عن نسبتها إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-، إذ الأصل في نصوص الفرائض الوضوح، لا حمل المعنى على جانبين متناقضين.

ثانياً- التنوع الأسلوبي لعتبة الافتتاح، وأثرها على المتلقي:

تعتمد الأحاديث الموضوعية في بنائها اللغوي والأسلوبي على محاكاة أسلوب الحديث النبوي الشريف؛ من حيث أسلوب الافتتاح، أو استثمار بنية الأساليب الشرطية التي تتعلق فيها جملة بجملة أخرى؛ ما يعطي الواضع مساحة تقيد المتلقي بالجزاء المترتب على الشرط، وغيرها من أساليب التعبير للتأثير في المتلقي؛ كالابتداء بالقسم، أو الدعاء، أو الخبر المؤكد، أو الأمر، أو النهي، ونعرج من خلال هذا المبحث على بعض هذه الأساليب البلاغية؛ التي أسهمت في استجابة القارئ لهذه النصوص.

^١ صحيح سنن أبي داود، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٨٤/٥، رقم ١٣٩٧.

١- الاستفتاح بأسلوب القسم:

تتصدر صيغ القسم بعض مواضع الحديث المرفوع، إذا كان مضمون الكلام بحاجة ماسة إلى التأكيد والنقوية؛ فكلام النبي- صلى الله عليه وسلم - لا يحتاج إلى القسم كل مرة، ولذا تبرق الأبصار عند سماع القسم، وتتشوق متطلعة إلى الأسباب الداعية لحضوره في الخطاب، من بين الأساليب الأخرى.

ومن بين هذه الأقسام؛ ما جاء كثيراً في الحديث المرفوع، واحتذاه الواضع؛ كالبدء بقوله: (والذي نفسي بيده)؛ نحو حديث: "إنه صلى الله عليه وآله وسلم وصف ذات يوم الجنة، فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله، أفي الجنة برق؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إن عثمان ليتحول من منزل إلى منزل فتبرق له الجنة"^١، وهو موضوع في فضائل عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وجنوح الواضع إلى استعمال جملة القسم: (والذي نفسي بيده)؛ لأن كثيراً من النصوص الصحيحة تبدأ به؛ إذ هو أكثرها وروداً، ويعتمد الواضع عليه؛ تأكيداً لخبره الذي يبتعد عن القبول، فباختيار هذا الأسلوب يكون الواضع قد أوهم السامع بصحة ما يقول، ومن صور وروده في الحديث المرفوع؛ قوله- صلى الله عليه وسلم -: "والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً، فيسأله أعطاه أو منعه"^٢؛ وسلطة القسم نافذة على نفس المتلقي، وموجهة له، وقادرة على إخضاعه، وهي تستوي مع أعلى منازل الأسلوب الخبري عند البلاغيين، في الضرب الإنكاري منها؛ بل تفوقها، إذ هي نوع من التوكيد المغلظ، وظهور هذا التركيب في الحديث الموضوع؛ يهبه قوة، وسلطة خاصة؛ فيقع المتلقي أسير القسم.

واختيار البرق غير مقبول في الجنة، إذ يظهر كذب النص لما هو معروف من تلازم بين البرق، والخوف؛ قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) (الرعد: ١٢)، إذ كيف يكون في الجنة ما يعد من مواطن الخوف والفرع؛ إذ البرق يقتزن بالأمل في السقيا، وكيف يكون في الجنة؛ وهي عامرة بالأنهار، متعددة المشارب، والأشكال.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٣٤١.

^٢ صحيح البخاري، ١٢٣/٢، رقم ١٤٧٠.

٢- الاستفتاح بأسلوب الشرط:

لأسلوب الشرط قدرة على التأثير في نفس المتلقي؛ لما يحمله في بنيته التركيبية من تماسك جملتين؛ إحداهما فعل الشرط، والأخرى جوابه، وهو حمار الوضّاعين، إذ يشيع في نصوصهم؛ لقرب مأخذه، ودوره الإقناعي في تقديم الدليل.

وكثر استعمال أداة الشرط (من) من بين أساليب الشرط؛ فهي أكثرهم وروداً في الأحاديث الموضوعية، إذ يربو عددها على أكثر من مائتي حديث موضوع في كتاب (الفوائد) للشوكاني، ولأسلوب الشرط بـ(من) الدالة على العاقل مزية الاختصاص بالمفرد العاقل، مع ربط الجزاء بفعله، فعاقبته عليه لا يشاركه فيها أحد؛ وهذه السمة التأثيرية الإقناعية في الشرط؛ جعلت واضعي الأحاديث يفضلونها، بالإضافة إلى كثرتها في الأحاديث المرفوعة، حتى غدت ظاهرة أسلوبية.

ومن نماذج ذلك أيضاً؛ حديث: "مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^١، وهو من الأحاديث المشهورة بين جمهور المتلقين، ورد في كتاب (كشف الخفاء) مع زيادة تبين تخصيص الأذى؛ يقول (العجلوني): "مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أَوْ تَقَصَّ حَقَّهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بغيرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^٢، ومعنى الحديث مقبول عند عامة المسلمين، وكل النصوص تنهى عن الظلم والبخس؛ قال تعالى: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الشعراء: ١٨٣)، والملاحظ أن اتجاه الوضع لم تحدد طريقه، فقد يكون واضعه ذمياً وهذا غير بعيد، فقد كانوا على معرفة بالعربية، وأساليبها التعبيرية، وقد يكون واضعه اختلقه لموقف مر به، والناس متفقون على إنكار إيقاع الظلم بأي إنسان، وبخاصة أن الآية القرآنية لم تحدد المسلم دون غيره؛ بل عممت النهي عن الظلم، وبدا ذلك في لفظ (الناس) دون المسلمين.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢١٣.

^٢ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ، ٢/٢١٨.

وفي حديث: "مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"^١، الذي جاء مصدراً بـ (من) الشرطية أيضاً، واستقبله المتلقي لوجازة لفظه، وما فيه من الدعوة إلى نشر الدين، ولكن اعترى الحديث ركافة في لفظ (وجبت) ، فقد حصر الأجر -هنا- بوجوب الجنة له دون احتراز، فلم يخرج ما عداه من أحوال ذلك الداعي إلى الدين الناشر له. والحديث ليس نبتاً في الهواء؛ بل تمتد جذوره إلى حديث ورد في صحيح مسلم، أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قال يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يُحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله... ثم أعطى الراية لعلي بن أبي طالب،" فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ "انْفِذْ عَلَى رَسُولِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النِّعَمِ"^٢.

وبين الأسلوبين بون شاسع في الصياغة، وحسن النظم؛ فالأول ركيك العبارة، يختلف في بنائه عن الحديث الثاني؛ ففي الأول: ذكر الإسلام صراحة، وفي الثاني: جاءت الهداية كناية عن الإسلام، والأول مطلق لم يبين العدد؛ بل بيّن الجنس، أما الثاني فمقيد؛ حدد فرداً واحداً، والأول: أوجب له الجنة، على حين بين الثاني فضل جزاء الدنيا؛ إذ فضل هذا العمل خير من كرائم الإبل، وأعلاها منزلة وثمناً، ولم ينص على الجنة؛ فهي مذكورة ضمناً، والتلميح إليها خير من التصريح، ولم يمنع النص الموضوع التحرز مما يؤدي إلى ارتكاب الفواحش مستقبلاً، إذ أوجب له الجنة على كل حال.

ويكثر استعمال أسلوب الشرط المبدوء بـ(من)، في مفتتح الأحاديث الموضوعية في فضائل السور؛ يقول الواضع: (من قرأ سورة كذا)، ويضع فضائل يختلقها لبعض السور، التي اختصها الواضعون بالفضل دون غيرها؛ فيقولون: (من قرأ سورة...)، وذكر (آية الكرسي التي كثر الحديث عن فضلها، والفاتحة، والدخان، والكهف، والواقعة، ويس، وقل هو الله أحد...).

^١ الفوائد المجموعة، ص ٥٥.

^٢ صحيح مسلم، ٨٧٢/٤، رقم ٢٤٠٦.

وإنكار هذه الأحاديث جاء بعد التثبت من الوضع؛ فلم يذكر في الكتب الصحاح شيء من هذا؛ بل جل رواته كذابون، وكان التساؤل: لماذا يخص هذه السور بالفضائل دون غيرها؟، فقد يدعو ذلك الناس إلى هجر السور الأخرى من القرآن؛ لذلك كان نقد تلقي هذه النصوص يتجه إلى أن القرآن كله كالسورة الواحدة، لا فضل لسورة على أخرى؛ إلا بنص مرفوع صحيح.

ويمكن قبول الناس لهذه الأحاديث الموضوعة؛ يعتمد -في الأصل- على ما يقدمه جواب الشرط، من الجزاء العظيم لقارئها، وبخاصة سورة كالواقعة، التي تمنع الفقر والفاقة؛ فكثير من الناس يقبلون على قراءتها لهذا السبب، ومن ثم استغل الواضع استعداد الناس لقبول مثل هذه الترغيبات؛ فقصده إلى غرضه بفضله، ونالت من القبول والذبيوع ما جعل أهل العلم والتفسير، يقبلون على نشرها بين الناس، فلم يسلم من سلطة هذا النص الموضوع عامة الناس، ولا خاصتهم، يذكر (الشوكاني) حديث: "من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم يصبه فاقة أبداً، ومن قرأ في كل ليلة لا أقسم بيوم القيامة؛ لقي الله يوم القيامة ووجهه في صورة القمر ليلة البدر"، وهي من الموضوعات المشهورة.

ولون آخر مما يفتتح فيه بأسلوب الشرط المصدر بـ(من)، ويقرنها بكلمات مشهورة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ؛ كما في حديث: "من سره أن يلقى الله طاهراً مطهراً، فليتزوج الحرائر"^٢، وقد عمد الراوي إلى الافتتاح بتركيب مشهور؛ فنسج على منواله، كما في صحيح البخاري: "من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه"^٣، بالإضافة إلى اعتماده على أسلوب الشرط الذائع الصيت عن الوضّاعين لتعلق الجزاء بالشرط، وهو من أشهر أساليبهم، والناظر في مضمون النص يجد تناقضاً مع النصوص الثابتة الصحيحة، التي لا يضيق فيها الواسع، فما علاقة ثواب حسن لقاء الله بزواج الحرائر!، فاستعمل أسلوب الشرط لإقناع السامع الذي استقبل النص، وخدعه الشرط، والإيجاز.

^١ قال: وفي إسناده كذاب. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣١١.

^٢ يقول الشوكاني: رواه ابن عدي عن علي وابن عباس مرفوعاً، وفي إسناده: خمسة كذابون.

انظر/ الفوائد المجموعة، ص ١٢٣.

^٣ صحيح البخاري ٥٦/٣، رقم ٢٠٦٧.

ومن أدوات الشرط (إذا)، التي يكثر استعمالها في تحقق وقوع الأمر؛ "لأن إذا الشرطية مختصة بالتعليق على الشرط المقطوع بوقوعه، حقيقة، أو حكماً"؛^١ ووردت في مواضع كثيرة من النصوص الموضوعية، وجاءت في موضع الصدارة؛ نحو حديث: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، وَإِذَا ابْتَلَاهُ افْتَنَاهُ، قِيلَ: وَمَا افْتَنَاهُ؟ قَالَ: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا"^٢، وفي هذا السياق؛ يرد حديث صحيح يسطو الواضع على مفتتحه، نحو حديث: "عن أبي هريرة، عن النبي- صلى الله عليه وسلم - ، قال: "إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبيه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض"^٣، فقد بنى الواضع حديثه على افتتاح حديث صحيح، مستعملاً أسلوب الشرط الدال على تحقق حدوث جواب الشرط؛ لتحسين مضمون النص، وهي آلية إقناعية تمارس سلطة على المتلقي، وتمكن النص الموضوع من التجاوب السريع، ولكن بناء الحديث يشوبه الوهن الشديد عند المتدبر لنصه، من جهة اللفظ، ومن جهة التركيب؛ فكلمة (افتناه)، لم ترد في حديث رسول الله- صلى الله عليه وسلم - إلا في موضع حديث عبد الله بن عمر: "مَنْ افْتَنَى كَلْبًا، إِلَّا كَلْبًا ضَارِيًا لَصِيدٍ أَوْ كَلْبًا مَاشِيَةً، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلِّ يَوْمٍ قِيرَاطَانٍ"^٤، وهي عند اللغويين: "قنى الشيء واقتناه، إذا كان ذلك معداً له لا للتجارة"^٥.

^١ شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لمحب الدين الحلبي المعروف بناظر الجيش، دراسة وتحقيق: د. علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ، ٩/ ٤٣٥٩.

^٢ رواه الطبراني، وله ألفاظ، وفي إسناده من ينسب إلى الوضع، وله شواهد. "انظر/ الفوائد المجموعة ص ٥٠٨.

^٣ صحيح البخاري، ١١١/٤، رقم (٣٢٠٩).

^٤ السابق، ٨٧/٧، رقم ٥٤٨١.

^٥ مقاييس اللغة، لابن فارس (مادة: قنا).

وفي السؤال: "وَمَا اقْتَنَاهُ؟"، قَالَ: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا، فمن تركيب الحديث الصحيح؛ يظهر استعمال الاقتناء -من جهة المعنى اللغوي- لشيء لا تجارة فيه، ويخص الاقتناء كل لفظ يصلح للتملك، والتجارة معاً، وتملك الشيء يكون في غير الإنسان، ففصاحة اللفظ في نظمه يصح مع غير الإنسان، ولكن الواضع أخطأ في نسبة الاقتناء إلى الإنسان، وحقه أن يقول: (اصطفاه)، وهي صالحة للإنسان، ومن بيان الوضع أنه قيد الاقتناء في الأهل والمال، دون غيرهما من مواضع الابتلاء؛ كالابتلاء في النفس والجسد، وهو ما يبين مراوغة الواضع باستعمال أسلوب الشرط مرتين تقريراً؛ ثم العدول إلى الاستفهام تشويقاً.

وللشرط قدرة على ربط قضية تناسب الثواب مع العمل، في أسلوب يختص به دون سواه، إذ أكثر الجمل الشرطية في الأحاديث الموضوعة ترغيباً؛ حيث يقدم العمل، ويذكر ثوابه في هذا الأسلوب الجامع.

٣- الاستفتاح بذكر العدد تشويقاً:

أسلوب نبوي يكثر في بناء الأحاديث المرفوعة؛ لأجل ذلك يسلك الواضع هذا المسلك في البناء التركيبي لنصه؛ فيبدأ بلفظ العدد مجملاً أموراً، ثم يفصلها بعد ذلك؛ ومما ورد مرفوعاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ"^١.

فيبدأ بالعدد تشويقاً؛ ومن هذه الأحاديث الموضوعة التي حذا فيها الواضع حذو الأحاديث المرفوعة، ما يبتدئ فيه بالعدد؛ نحو حديث: "ثلاثة يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن"^٢، وقد اختار هذه الثلاثة؛ لقربها من النفس، إذ هي مؤنسة لها، ومقبولة عند السامع، وذكر العدد مأنوس الاستعمال؛ لذا شاعت مثل هذه الأحاديث التي بدأت بالعدد، وفيها بلاغة مصنوعة؛

^١ صحيح البخاري، ٨٢/٣، رقم ٢٢٢٧.

^٢ الفوائد المجموعة، ص ٢١٧.

تعتمد على حسن التقسيم، وتقديم الأقرب إلى النفس، وفيها لون من التدرج، والانتقال من أمر إلى آخر؛ وصولاً إلى الانتهاء، وختم الكلام بما هو أكثر قبولاً، والحديث بالغ الصنعة، ركيك الأسلوب، وبخاصة مع تكرار حرف الجر (إلى)؛ الذي أثقل النص دون فائدة، وخص الماء الجاري دون الساكن؛ المرغوب في هذا الموضع الذي يتحدث فيه الراوي عن الهدوء والسكون.

ونحو ذلك؛ ما ورد في حديث: "ثلاث لا ينجو منهم أحد: الظن، والطيرة، والحسد"^١، وبناء الحديث مرسل، يجري مجرى الحكمة الشائعة، ولا يرقى بناؤه اللغوي إلى نسبته إلى النبي- صلى الله عليه وسلم -؛ فلم يبين الحديث عدم النجاة هل للظان والمتطير والحسود، أم لمن تقع عليه هذه الصفات؛ فيكون مظنوناً به السوء، ومتشامماً منه، ومحسوداً؛ فبدأ النص ذا وجهين، ولا قيمة لهذه الثنائية، وسبب شيوع الحديث؛ وحدة معاناة الناس من هذه الثلاثة، وغيرها؛ فكان حسناً مقبول المعنى، لا يرد.

ومنه حديث: "خمس يفطرن الصائم وينقضن الوضوء: الكذب والنميمة والغيبة والنظر لشهوة واليمين الكاذبة"^٢، وقد يفهم من السياق غرض المرسل، من الترهيب بترك منكرات تقع من الصائم، ويلقى ذلك قبولاً عند السامع العَجَل، ولكن بالنظر في بنية النص؛ يظهر خطأ في البناء اللغوي، إذ وضع اللام موضع الباء؛ فقال: (النظر لشهوة)، وأصلها النظر بشهوة، كما أن الجمع بين مبطلات الصوم، ومبطلات الوضوء؛ ليس واحداً، ولم يرد اتفاق بين ما يبطل هذا فيبطل تلك، ولو تدبرنا هذه المبطلات؛ وهي: (الكذب، والنميمة، والغيبة، والنظر لشهوة، واليمين الكاذبة)؛ فهذه كلها يحسن اتقاء فعلها مع الصوم، والوضوء وكل أوقات المسلم، فهي ليست خاصة بهما، لكنها لا تنقض الوضوء كما زعم؛ فللوضوء نواقض معروفة.

وقد كانت هذه النصوص السابقة مقبولة؛ لنسبتها كذباً إلى النبي- صلى الله عليه وسلم -، وإلى عناية الواضع بالنسج على منوال نص مرفوع.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢٢٧.

^٢ قال السيوطي: وسبب ضعف الحديث أن سعيداً كذاب والثلاثة فوقه مجروحون. انظر/ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٩٠/٢، والفوائد المجموعة، ص ٩٤.

٤- الاستفتاح بلفظة (اللهم) تصديراً للدعاء:

يستعمل الدعاء عن الطلب من الله تعالى خاصة، ويقع من الناس عن اضطرارهم إليه، فقليل من يدعو في حال الرخاء، وللدعاء غايات ومقاصد، فطن إليها الواضع، فأراد توظيفها في النص.

وأحياناً يبدأ الحديث بالدعاء باستعمال لفظ (اللهم)؛ نحو: حديث: "اللهم اغفر للمعلمين، وأطل أعمارهم، وبارك لهم في كسبهم"^١، وهو أسلوب يستعمله الواضع لكسب المتلقي لفئة يرفع شأنها، فجعل دعاء النبي لها دون غيرها، والوضائع كثيراً ما يصنعون الأحاديث في المهن، والحرف، والأطعمة، والأشربة؛ ترويحاً لها. وفي هذا النص، يسلك الواضع مسلك التعريض بقيمة المذكور؛ فيخصه بالدعاء، ولا يخص النبي- صلى الله عليه وسلم - أحداً بالدعاء؛ إلا إذا كان ذا شأن، ومكانة عنده، ومن الموضوعات التي تصدرت بالنداء والدعاء: (اللهم اغفر للمتسولات من أمتي، اللهم أعط علياً فضيلة، اللهم ارحم إخواني بقزوين... فهو يحذو حذو هذا الأسلوب؛ لإعلاء شأن شخص، أو جماعة، تعصباً أو ترغيباً.

٥- الاستفتاح بأسلوب الأمر:

ورد الاستفتاح بالأمر كثيراً في نصوص الوضّاعين، ويغلب على دلالته الإلزام، فلم يضع الواضع حديثه إلا لإثبات أمر يقطع بصوابه، ويحض سامعه على فعله والعمل به؛ لذا جاءت هذه الأحاديث المصدرة بالأمر في صورة ملزمة للمتلقي، والنفس تقبل الأمر، وبخاصة إذا كان ممن لا يجب رد أمره، فتخفى الواضع خلف شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم- ليضع أحاديث يحض الناس فيها على فعل ما يريد، ويعتقد - ظناً منه- بصواب فعله، وسلامة نيته؛ منها حديث: "خذوا شطر دينكم عن

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢٧٦.

الحميراء^١، فالتعصب لآل البيت، أو التعصب لأهل السنة؛ هي من غلواء الوضّاعين، وقد يكون معنى النص مقبولا؛ لأن السيدة (عائشة) تزوجت النبي صغيرة، ولازمته طويلاً، وكان يقدمها ويصطفئها؛ وروى (النسائي) موضع تسميتها بالحميراء؛ قال: "دخلت الحبشة المسجد يلعبون في المسجد، فقال: يا حميراء، أُتُحِبِّينَ أن تنظري إليهم؟...."^٢، لأجل هذا؛ كان النص مربكاً للمتلقي، ومؤثراً في بنائه وتركيبه، وموجزاً في كلماته، ومكناً غير مصرح بالسيدة (عائشة)، كل هذه الأمور؛ صنعت هذه الاستجابة عند المتلقي.

ومن أسباب الوضع أن يلبسوا على الناس دينهم؛ فيقولون: "إن السنة غير محفوظة، وإن بعضها ينقض بعضاً، يأتون على ذلك ببعض الأمثلة؛ منها حديث: خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء، يعني عائشة، ثم يعارضون به قوله- صلى الله عليه وسلم - في النساء إنهن (ناقصات عقل ودين)، ويقولون: انظر كيف وصف النساء بالنقص في هذا الحديث؛ ثم أمر بأخذ شطر الدين من عائشة، وهي متهمة بالنقص"^٣، والأول موضوع، والثاني صحيح، وهم يفعلون ذلك طعناً في الدين، وربما يستشهدون بحديث: "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"^٤، لذلك تختلف أهداف الوضع على حسب الواضع ومآربه، أو جهله وسوء تقديره.

^١ قال ابن حجر : لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث! إلا في نهاية ابن الأثير، وإلا في الفردوس بغير إسناد، وسئل المزي والذهبي فلم يعرفاه، كذا في المقاصد. انظر/ الفوائد المجموعة، ص ٣٩٩.

^٢ السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م، ٨/١٨١.

^٣ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: محمد زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق، سنة ١٩٧٩، ص١٠.

^٤ صحيح البخاري، ٤/١٥٨، رقم 3411.

٦- الاستفتاح بأسلوب النهي:

قد يستفتح بالنهي وهو طلب الكف عن الشيء، وما يحمله من استعلاء كما هو معروف عند البلاغيين؛ ليرهب ترهيباً مباشراً، وهذا الأسلوب كثيراً ما يجد قبولاً عند السامع الذي يقرع سمعه النهي، فيكون أقرب إلى الإذعان.

وقد بدأت أحاديث كثيرة بالنهي عن أمور، منها: لا تأكلوا اللحم، ولا تتزوجوا الحمقاء، ولا تجالسوا أبناء الملوك، ولا تسافروا والقمر في العقر، ولا تسبوا الديك.. فيبدأ بالنهي؛ ثم يذكر علة النهي، وقد تكون الجهة منفكة، إذ العلة التي يقدمها لا تكون مقنعة للناقد اليقظ، وكلامه لا يرقى إلى الأسلوب النبوي بحال من الأحوال؛ نحو حديث: "لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك"^١، وهو صحيح معنى، لكن يعتريه خطأ في بنيته التركيبية؛ فالأصل: استعمال (الباء) بدلاً من (اللام) الجارة (بأخيك)، وخطأ آخر فيما يترتب على إظهار الشماتة من الرحمة به، وابتلاء الشامت، وهذا لا يصح؛ فقد خصص العلة بانقلابها، وهذا غير مؤكد حدوثه.

وأسلوب الحديث أقرب إلى النص؛ لكنه لا يرقى إلى فصاحة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وحسن بيانه، فمقولة النبي - صلى الله عليه وسلم - لا تصيب هدفاً واحداً؛ بل تتنوع أهداف المقولة وتتشعب، فكلامه دون كلام الخالق كما قال العلماء، ولكن المتلقي يستقبل النص استقبال الموافق لمضمونه؛ من جهة عدم إظهار القبيح، ومناطق الرفض ليس فيما يحمل فحواه من معان سامية؛ ولكن الأمر للتجروء على وضع نص، ونسبته إلى رسول - صلى الله عليه وسلم - الله زوراً، ومن أسباب ذبوع هذا النص؛ تنافسه مع نص آخر، هو ما رواه (الترمذي): "من عير أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمل" ثم علق عليه (الترمذي) قائلاً: هذا حديث حسن غريب، وليس إسناده بمتصل، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل"^٢.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢٦٥.

^٢ سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ٢٤٢/٤.

ومنه ما ورد في حديث: "لا تَمَارِضُوا فَمَرَضُوا، وَلَا تَحْفَرُوا قُبُورَكُمْ فَمَمُوتُوا"^١، إذ ينهى النص عن التمارض بادعاء المرض كذباً وزوراً؛ للحصول على مآرب دنيوية لا حق للمتمرض فيها، وإذا كان الكذب ممقوتاً؛ فما كان من جنسه يقع عليه ما يترتب على الكذب، ومعنى النص يرهّب من التمارض، إلا أنه زاد في النهي جزاءً يترتب على التمارض، وهو أمر قد لا يحدث؛ فيكون الحديث كاذباً، فكم من متمرض لم يصبه شيء، وللحديث صورة مقبولة عند السامع في النهي عن مكروه يترتب عليه ضرر؛ لذا حسنت استجابة القارئ له، وهو من الأحاديث المشهورة؛ إذ يُذكر عند كل من ادعى مرضاً، أو شك الناس فيه لظهور علامات هذا الادعاء؛ فيلقون عليه الحديث ترهيباً له.

ثم أعقب الواضع بنهي آخر غير مفهوم مقصده منه؛ إن كان معنوياً أم مادياً، فالنهي عن الحفر غير واضح، هل هو حسي من الحفر، أم هو تأكيد للمعنى الأول؛ على طريقة التذليل في الإطناب، ولكن الواو تقتضي المغايرة، فالجملية الثانية قد تحمل على الحقيقة لا المجاز، وهذا لا يقع من خلال التجارب اليومية، فالنص موجز؛ لكنه ركيك الصياغة، ومتفكك الأجزاء، يقع من العامة موقع القبول؛ لسهولة لفظه، وأسلوبه الخطابي.

٧- الاستفتاح بالخبر المؤكد بيان:

يبدأ الواضع حديثه تأكيداً لخبر يرغب في ذبوعه وانتشاره؛ فيقدمه بالتوكيد تثبيتاً لفؤاد المتلقي، ولـ(إن) تأثيرها العميق في تقرير الأمر في النفس؛ فهي تأتي للمتردد والشاك المنكر، فتثبت لهما الخبر، كما تأتي لخالي الذهن زيادة في التأكيد؛ وذلك عند خروجها على مقتضى الظاهر، إذ إن خالي الذهن من المتلقين لا حاجة له إلى التأكيد، لكن قد يؤكد له الخبر زيادة؛ لذلك فهي مقبولة عند المتلقي، وحضورها في افتتاح النص له تأثير لا ينكر، وعمد الوضّاعون إلى الإكثار من الافتتاح بها؛ لما لها من سلطة على النفس.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٢٦٢.

وقد يتناقض مضمون النص بحيث يبدو مقبولاً في جانب منه وغير مقبول في الجانب الآخر؛ نحو حديث: "إن السخي قريب من الناس، قريب من الله، قريب من الجنة، بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، والفاجر السخي أحب إلى الله من عابد بخيل"^١، فيبدو من وضعه الحث على السخاء، وترك البخل بالترغيب والترهيب معاً، وهو ما بنى عليه نصه؛ إذ كان أسلوب المقابلة أقوى في بيان التنافر والاختلاف، لكنه باين في الترتيب، فبدأ في الأولى بقريب من الناس، وبدأ في الثانية بقريب من الله، فلم يأت على الترتيب نفسه، ثم إنه ختم الكلام بما لا يقبل منطقاً أو عقلاً؛ فقال: (والفاجر السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)، وهذا غير مقبول في تفضيل الفاجر على العابد لهذا السبب، لما للأول من السخاء، وما للآخر من البخل، وهذا لا يصح؛ إذ كيف يستوى من يطلب الهداية ومن يعرض عنها، والمبالغة تكمن في الترغيب، لكنه ترغيب أخرج الأمر عن سياقه السوي إلى دعوة تضر، وهذا الأسلوب دون العامي؛ بل هو أدني إلى السوقي، ومقبوليته تكمن في مبالغته.

ومن صور التوكيد بـ(إن)؛ ما جاء في حديث: "إن الميت يتأذى بجار السوء، كما يتأذى الحي بجار السوء"^٢، فحمل الواضع بنية النص على التأكيد والتشبيه؛ لإقناع القارئ، فقد أكد ما يلحق الميت من أذى جراء جاره السوء، ولما كان ذلك غير مقبول؛ أردفه بالتشبيه المؤكد المقرب للإقناع، وجعل غير الممكن في حكم الممكن؛ عندما ذكر ما يلحق الحي من الأذى جراء جاره السوء، فكان أكثر حملاً على التصديق بما وضع وكذب، وقد استعمل الواضع سلطة التصوير في بيان أمر معنوي بآخر حسي؛ لتقريب الصورة للمتلقي، وللصورة أثرها في الإفهام، وإثبات المراد.

^١ الفوائد المجموعة، ص ٧٧.

^٢ السابق، ص ٢٦٧.

خاتمة:

عني البحث بظاهرة مهمة من ظواهر الكتابة النثرية؛ هي ظاهرة الأحاديث الموضوعية وآليات تلقيها، واستطاعت الدراسة أن تقدم صوراً من التلقي لهذه النصوص، مع بيان الدواعي، والأسباب التي أسهمت في استقبالها وانتشارها، وخلص البحث إلى عدة نتائج تؤكد الدراسة؛ هي:

أهمية الدور النقدي لنظرية التلقي في دراسة استجابات القارئ للنصوص الموضوعية، وفق ما يناسب نص الحديث الموضوع من آليات هذه النظرية. من دواعي استقبال النصوص الموضوعية؛ ما يخترنه عقل المتلقين من النصوص الصحيحة المتداولة في سلوكياتهم، ومعارفهم، وخبراتهم، والتي صارت عرفاً وجزءاً من تعاملاتهم اليومية.

تنوع طبقات المتلقين حسب درجة المقبولية، والبعد الاجتماعي إلى: طبقتين من شأنهما نقد النص هما: طبقة الجامعين للنصوص (كتب الموضوعات)، وطبقة المخرجين لهذه النصوص (كتب التخاريج)، وثلاث طبقات من شأنها الاستقبال الجمالي والتأثيري للنص؛ هم: طبقة الوعاظ، والمتقنين، وجمهور العوام. للتناس قدرة على التأثير في المتلقي، وهو من سهام الواضع القادرة على النفاذ إلى عقل القارئ، وله دوره في التأثير النفسي عليه للتجاوب مع النص.

تجانس نظرية التلقي مع عينة التطبيق، من خلال مفاهيم النظرية ومصطلحاتها التي أفادت الدراسة؛ كالقارئ الضمني، والمسافة الجمالية، واندماج الآفاق، والسجل النصي، وأفق التوقع، فقد كانت جميعاً آليات مساعدة في الكشف عن أسباب التلقي، وذيوع النص بين المتلقين.

تنوع صور الاستجابة حسب الأغراض والحالة المستقبلية إلى: تلقي صور معينة كثرت في الأحاديث الموضوعية استعملها الواضع كمثير للتلقي؛ منها: تلقي فضائل السور، وما أدرج في حديث ليس منه، وأحاديث وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - لنفسه، وما ورد على سبيل الغلط، وتلقي ما بني على نص صحيح، والتلقي بسلطتي الترغيب والترهيب، والتلقي تعصباً.

تداولت في الأحاديث الموضوعية ملامح بنائية وظواهر أسلوبية، كان لها سلطة التأثير على المتلقي لإقناعه، وقد نجحت في مآربها في جذب القارئ؛ كالقسم، والشرط، وذكر العدد، والدعاء، وأساليب الأمر والنهي، والخبر المؤكد، ... وغيرها. تباين النصوص في أبواب الكتب الموضوعية؛ فيقع تركيز الواضع على باب دون آخر حسب استجابات المتلقين؛ فنجد باباً ليس فيه أحاديث كثيرة، أو لا يكاد يتجاوز الواحد، وآخر يكثر فيه الوضع، وهذا الاستقراء؛ يعكس تجاوب المتلقي مع أنواع ذات خصائص محددة حسب حاجته.

ظهر من الدراسة أن كثيراً من النصوص صحيحة المعنى، إذ لو كانت حكماً لكانت أكثر تأثيراً في المتلقي، الذي تفقد عنده هذه النصوص عذوبتها، وجمالها، وحاجتها عندما يكتشف حقيقة وضعها، وعدم نسبتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. ظاهرتان أسلوبيتان في أسلوب الوضّاعين؛ هما: الإيجاز والافتتاح؛ إذ يؤثرون الإيجاز في النص، رغبة في سرعة الحفظ؛ فكلما كان النص موجزاً قصيراً ذاع وانتشر، بالإضافة إلى العناية بعتبة الافتتاح التي كانت أكبر همهم؛ حيث إن تنوع البدايات عندهم يرجع إلى تنوع مضمون النص، وهي غاية عندهم ووسيلة.

يجب التثبت من الحديث النبوي قبل ذكره في أي محفل؛ لأنه قد يضر أكثر مما ينفع إذا كان موضوعاً غير صحيح، فقد يغالي في الأمر بالمعروف فينفر النفوس من الفعل، أو النهي عن المنكر فيفوت على الناس حقوقاً لهم.

لأسلوب الشرط قدرة على التأثير في نفس المتلقي، لما يحمله في بنيته التركيبية من تماسك جملتين، إحداها فعل الشرط، والأخرى جوابه، وهو حمار الوضّاعين؛ إذ يشيع في نصوصهم لقرب مأخذه، ودوره الإقناعي في تقديم الدليل.

وللشرط قدرة على ربط قضية تناسب الثواب مع العمل، في أسلوب يختص به دون سواه، إذ أكثر الجمل الشرطية في الأحاديث الموضوعية ترغيباً، حيث يقدم العمل، ويذكر ثوابه في هذا الأسلوب الجامع، وهو ما يأخذ بفؤاد المتلقي.

المصادر والمراجع

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: محمد زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق، سنة ١٩٧٩.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، طبعة المدني بالقاهرة.
- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٧م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
- التأصيل الشرعي لقواعد الحديث، د. عبدالله شعبان، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، وآخرون، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- التكامل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تحقيق: علي بن محمد العمران وآخرون، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٠م.

دورية علمية محكمة- كلية الآداب- جامعة أسوان أبريل (المجلد الأول) ٢٠٢٥

- جماليات التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانز روبرت ياكس، ترجمة: رشيد نبحدو، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.
- الحديث الموضوع، سيد عبد الماجد الغوري، الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور، ماليزيا، ٢٠١٧م.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧.
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: د. محمد التتجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط١، ١٩٩٢م.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لمحب الدين الحلبي المعروف بناظر الجيش، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- صحيح سنن أبي داود، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠٠٢م.

دورية علمية محكمة- كلية الآداب- جامعة أسوان أبريل (المجلد الأول) ٢٠٢٥

- صحيح سنن النسائي، صحيح أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٩٨٨ م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- علم النص مدخل متداخل الاختصاصات فاندليك، د. سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٥ م.
- عيار الشعر، أبو الحسن بن طباطبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، مصر.
- الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢.
- فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث، شمس الدين السخاوي، تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة، مصر، ط١، ٢٠٠٣ م.
- فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ترجمة: حميد لحميداني، والجيلاني الكدية، مكتبة المناهل، المغرب.
- فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية، فولفجانغ إيزر، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠ م.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦ هـ.
- القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي، المغرب ط١، ١٩٩٦ م.
- قراءة النص الهرمينوطيقا والتأويل، حسن حنفي، مشترك بين عدد من الباحثين، دار قرطبة للطباعة والنشر، المغرب، ط٢، ١٩٩٣ م.

دورية علمية محكمة- كلية الآداب- جامعة أسوان أبريل (المجلد الأول) ٢٠٢٥

قراءة النص، وجمالية التلقي، عبد الواحد محمود عباس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.

قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد، سراس للنشر، تونس، ط١، ١٩٨٥م.

قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٥م.

كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ.

اللائئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١٤٢٠ هـ.

المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.

معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط١، ١٩٧٩م.

معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، سوريا، ١٩٨٦م.

دورية علمية محكمة- كلية الآداب- جامعة أسوان أبريل (المجلد الأول) ٢٠٢٥

مقدمة محقق كتاب الزيادات على الموضوعات، ويسمى (ذيل اللآلئ المصنوعة)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: رامز خالد حاج حسن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٠م. من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط١، ١٣٩٠هـ.

الموضوعات لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، السعودية، ط١.

النص من القراءة إلى التنظير، محمد مفتاح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩م.

النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

نظرية الاستقبال رؤية نقدية، روبرت سي هولوب، ترجمة: رعد عبد الجليل، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٢م.

نظرية التلقي مقدمة نقدية، روبرت هولوب، ترجمة د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط١، ٢٠٠٠م.

الوضع في الحديث الشريف، د. عمر فلاته، مكتبة الغزالي، دمشق، ط١، ١٩٨١م.

مجلات ومنشورات علمية

الآثار السلبية للروايات الواهية والضعيفة في الدعوة والوعظ، محمد سعيد حوى، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، المجلد ٤٦، عدد يوليو- سبتمبر ٢٠١٨م.

إشكالات نظرية التلقي "المصطلح، المفهوم، الإجراء"، علي حمودين، المسعودي قاسم، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، عدد ٢٥، ٢٠١٦م.

دورية علمية محكمة- كلية الآداب- جامعة أسوان أبريل (المجلد الأول) ٢٠٢٥

الخطاب الأدبي بين بلاغة التلقي وتلقي البلاغة، مجاهد بوسكين، مجلة اللسانيات التطبيقية، جامعة الجزائر ٢، مجلد ٦، عدد ٢، سنة ٢٠٢٢م.

فعل القراءة: بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات فولفغانغ إيزر(نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات)، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٢٤، منشورات كلية الآداب، الرباط.

منهج الزمخشري في التعامل مع الحديث النبوي، د. خيرى أحمد محمد عبد العزيز، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مجلد ٣٢، عدد ٦٠، يوليو ٢٠٢٣م.

نظرية التلقي والنقد العربي الحديث، أحمد بوحسن، نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٢٤، منشورات جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٠م.

نظرية القراءة المفهوم والإجراء، عبد الرحمن تبرماسين وآخرون، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٩م.

مواقع على شبكة الإنترنت

<https://www.elbalad.news/202706> الأربعاء ١٢ مارس ٢٠١٦م.